

توفيق الحكيم السافر

اقرأ



اقرا

تصدر أول كل شهر

٤٧٦٦ [يونيو - ١٩٨٢]

رئيس التحرير أنيس منصور

توفيق الحكيم السافر



دارالمعارف

تصميم الغلاف : منى جامع

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

حمارى ومنظرى

قال لى حمارى وهو يتأمل جندياً شاباً ، مربنا فى طريقه ولا ريب إلى ساحة القتال ، ولقت أنظارنا بهاء طلعتة :

— انظر إلى هذا الجندى الفاتن ؟.. ماذا عليه بربك لو أعطاك رأسه تفعل به أنت هنا الأفاعيل ، وأخذ رأسك القبيح هذا يموت به فى الميدان الغربى ؟.. فلم أرد عليه .. فتلك مسألة طالما فكرت فيها من قبل بينى وبين نفسى .. نعم .. طالما نذبت سوء حظى ونصيبى وبكى واشتكيت ، لأن السماء خلقتنى هكذا شكلاً وموضوعاً .. ولكنى فكرت وتأملت ، وقلت عن نفسى ما قال الفيلسوف «باسكال» عن «كليوباترا» :

«لو أن الله جعل لى أنفاً أصغر من أنفى هذا لتغير وجه حياتى كله أجمل تغير .. ولكن الله ضمن على مثلى بهذه المنحة الصغيرة وهى لا تكلفه كثيراً

ولا قليلاً . . . » .

وكنت كلما ذهبت إلى حلاق وأبصرت إلى جانبي رجلاً بديع القسمات
أنحاطب السماء قائلاً :

لكأنك يا ربى قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين قد وضعت بين أيديهم صناديق
مملوءة بمختلف أصناف الأنوف والشفاه والآذان والعيون ، ليختاروا من بينها ما لذ
لهم وطاب . . . أما أنا وأمثالى فينبذ إليهم ما بقى بعد ذلك فى قعر الصناديق من
« كناسة » أيدي أصحاب الحظوة والنصيب . . . قلت ذلك كثيراً ورددته طويلاً . . .
وإذا أنا أسمع ذات ليلة صوت ملاك من الملائكة يهبط على وأنا بمفردى فى حجرى
صائحاً لى :

- « فضحتنا . . . السماء صحت من تشيعك وتشهرك ! . . . » .

- عفواً يا سيدنا الملاك .

- اسمع يا أستاذ . . . لقد جئت إليك لأحقق كل طلباتك ، حتى لا تتهمنا بعد
ذلك بالتحيز أو المحسوية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة . . . ما رأيك
لو خلعنا عنك هذا الشكل الذى لا يعجبك ، وأعطيناك غيره كما تشاء ونحب ؟ ! . . .
- وكيف يحدث ذلك ؟ .

- تموت ثم تولد مرة أخرى فى ثوب جديد . . . وإن لك علينا لعهداً وميثاقاً
أن نفتح بين يديك كل تلك الصناديق التى تتحدث عنها ، لتختار أنت أولاً ما يحلو
لك قبل كافة مواليد العالم . . .

- ومن يضمن لى إذا مت أن أولد من جديد ؟ . . .

- عجباً . . . أوتشك فى وعد أهل السماء ! . . .

- كلا . . . ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن ؟ . . .

- بالطبع . . . وهل يحدث شىء بغير إذن المولى العظيم ! . . .

- إن الله حقاً لغفور رحيم . وافرحناه . . إنه سيعطيني كل ما أريد . .
- كل ما تريد وكل ما تتخير لنفسك .

- هذا شيء حميل . . اجلس إذن يا سيدنا الملاك ولتحدث قليلاً .
ولا بأس من أن تشير على بما ينبغي أن أختار . . فأنا أخشى أن تبهر عيني عند فتح
الصناديق ، فلا أستطيع أن أميز الجيد من الرديء . . إني أذكر سوء اختياري دائماً
لألوان « الكرافات » و « الجوارب » . . وحيرتي كلما فتح لي صندوق منها
لانتخاب أحسنها . . وإني لأغرق في تردد في مرة ثانية إلى أن ينتهي بي الأمر إلى تخير
أقبحها وأرذلها دون أن أدري أو أنتبه . .

- وتريد مرة أخرى أن تحملنا مسؤولية اختيار أنفك وفك ؟! لا . .
لا يا سيدي الأستاذ . . أو نسيت أنك منذ قليل كنت حضرتك تطعن في ذوقنا ،
وتتهمنا في نوايانا ؟! !

- حاشا لله . . إنا لم أطعن ولم أتهم . . إنما كنت أنظلم وأستعطف . ولقد
تفضلتم فاستمعتم إلى ظلامتي ، فأكمل فضلك معي وامكث نتبادل أطراف
الحديث .

- مكثت . . تكلم . . إني مصغ إليك أيها الأستاذ ! . .
- أيها الملاك . . ما رأيك في أن أطلب أن يكون لي شكل « كلارك
جيبيل » ؟ . .

- بديع جداً .

- أليس لك اعتراض . . فلنتفق من الآن . . والشرط نور .

- موافق جداً - بل أكثر من ذلك . . أحب أن ألفت نظرك إلى أن من

حقك - بناء على اتفاقنا هذا - أن تطلب ما شئت ، لا من حيث الشكل وحده . .
بل الأخلاق أيضاً . . ثم الثروة كذلك . .

- غريباً . . الأخلاق والثروة ؟ .
- ولم لا . . ؟
- إذن فأنا أطلب أن تكون لى ثروة « روكفلر » .
- معقول جداً . . .
- أليس كذلك ؟ .
- نعم . . وأخلاق من ؟ ! .
- آه . . حقاً . . دعنى أفكر قليلاً . . أظن أنه لا يوجد خير من أخلاق « غاندى » .
- عظيم جداً . . شكل « كلارك جيبيل » وأخلاق « غاندى » وثروة « روكفلر » . .
- ألا تظن أن هذا كثير ؟ . . إني أبالغ بلا شك . . إنها قلة ذوق منى . . إني أستغل عطف السماء أكثر من اللازم .
- كلا يا أستاذ . . مطلقاً . . لا شىء بكثير على قدرة الله . . إن الله إذا شاء أعطى بغير حساب . .
- اللهم شكراً . . أنا الذى طالما تمنى أن يلغى الحساب من الوجود ساعة تمتد يد الله نحوى بالعطاء . . ها هى ذى الساعة أقبلت . .
- ألك طلبات أخرى ؟ . .
- لا يا سيدى الملاك . . أبقى شىء يُطلب : شكل « كلارك جيبيل » ، وثروة « روكفلر » ، وأخلاق « غاندى » . . أأريد أن أنهب الكون ؟ . .
- يا للمعجزة . . إني سأغدو أعجوبة ولا شك فوق هذه الأرض ! . . إني سأصنع العجب العجائب .
- سوف نرى . .

- وهل هناك شك في أنى سأملك من الوسائل ما أصنع به الأعاجيب؟..
- أى نوع من الأعاجيب؟.. إننا لم نتفق بعد على اسمك وعملك؟..
- اسمى وعملى؟
- بالطبع.. يجب أن يكون لك اسم وعمل فى حياتك الجديدة.
- حقاً.. هذا مانسيت أن أفكر فيه..
- ثم يجب أن تكون لك جنسية!.. أمثل «جيل» و«روكفلر» أمريكياً، أم مثل «غاندى» هندياً هندوسياً.. أم..
- هندياً هندوسياً.. ما هذا الكلام أيها الملاك.. ومتى أتعلم هذه اللغة..
- لا.. لا يا سيدى.. بسط كل هذه الإجراءات، واتركنى كما أنا مصرياً، وليكن اسمى «توفيق الحكيم» كما أكون الآن..
- لا بأس فى ذلك ولا مانع لدينا مطلقاً.. وعملك؟.. هل تريد أيضاً أن تبقى كاتباً كما أنت..
- طبعاً.. طبعاً.. وهل يمكن أن يكون «توفيق الحكيم» شيئاً آخر فى الحياة غير ذلك.
- آه يا سيدى الأستاذ.. سوف نرى.. سوف نرى..
- نرى ماذا؟.. إنك تخيفنى بهذه اللهجة المبطنة بالشك والريبة.
- لا تخف.. إني ماجئت لأخيفك.. إنما أنا هنا الآن لأنيلك ما تشتهى.. ولكنك أردت أن تتجاذب أطراف الحديث، وقد جرنا الكلام إلى ما يعينى وإلى ما لا يعينى.. وإني لأرى الفضول يدفعنى إلى أن أوجه نظرك إلى أمر.. هل تسمع؟!..
- العفو يا سيدى الملاك.. تفضل.. وجه نظرى إلى حيث شئت.
- هل تتصور ما سوف يحدث غداً يا «توفيق الحكيم» وقد أصبح لك شكل.

«كلارك جيبل» وتصوف «غاندى» وثروة «روكفلر»؟!

- ماذا سيحدث؟
- تخيل تخيل يا سيدى الروائى
- تخيل أنت يا سيدى الملاك .
- إذا سمحت لى ، فإنى أقول لك : إن الذى سيحدث هو أن شكلك الجديد الجميل سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك .
- الله يسمع منك نجاه النى ! !
- ولكنك . . حيث أن لك تصوف «غاندى» فإنك لن تلتفت إليهن وستقنع من الحياة كلها بتلك «العزة» وتغلب من لبها وتشرب .
- وهل هذا معقول ! !
- وعند ذاك تنصرف عنك الجميلات يائسات ساخطات ، متسائلات عن كنه ذلك المخلوق الغافل عن جماله ، القانع بعزته وصومعته وخياله .
- معهن حق . . هذا مخلوق يستحق الشنق !
- هذا هو الجبال مع التصوف .
- لا يا سيدى . . احذف التصوف من فضلك .
- إذن فليكن الشكل «كلارك جيبل» مع أخلاق من ؟ .
- أخلاقى أنا تكفى . .
- أخلاقك كما هى الآن ! ؟ . . عظيم . . إذن فلتكن أنت بالشكل الجميل وثروة «روكفلر» . . أتدرى ماذا سيحدث ؟ . . سيحيط بك جميلات الأرض حباً فى صورتك وطمعاً فى ثروتك .
- أهلاً وسهلاً ! . . وأنا لا أتمنى على الله ولا عليك أكثر من ذلك .
- ولكن . . بما أنك تريد أن تبقى كاتباً روائياً . . فإنى أظن من الصعب

عليك أن نحدد وقتاً تتخلص فيه من أذرع النساء . لتجلس أمام الحبر والورق . .
وإذا وجدت الوقت فلن تجد الدافع الذى يحفزك إلى العمل . . أين فى تاريخ
الأدب والفن ذلك المليونير الوارث الذى يحى ظهره ليكتب أو يخلق . . إن لذة
الفنان هى فى أن ينتج ويقوم نتاجه بعد ذلك بالذهب أو بالمجد . . هو الذى يوجد
المال بفنه . . أما إذا وجد المال قبل ذلك عن غير طريق فنه ، فإن نصف لذة
الخلق الفنى تضع . . ونصف الحافز على الإنتاج يذهب . . المليونير الذى أصبح
فناناً عظيماً غير موجود . ولكن الموجود هو الفنان الذى قد يستطيع بفنه أن يكون
مليونيراً . .

- آه يا سيدى الملاك . . إذن لا ضرورة لثروة «روكفلر»؟! . .
- فكر فى الأمر يا سيدى الأستاذ . . ربما كنت غير مصيب . . فشئون الفن
تعرفها أنت أكثر منى . . إني - كما تعلم - لست فناناً . . أنا ملاك فقط .
- العفو العفو . . إن رأيك فى الحقيقة فيه شئ من الصواب . . إننا
لا نتبع فى الفن من أجل الثروة . أو على الأقل ليس من أجلها وحدها . ومع
ذلك فما ألد طعم المال الذى يأتى ثمرة الفن . حقاً . . إني لأحس هذا الشعور
دائماً . . ما أتفه المال الذى يأتينى من غير طريق فنى . .
- أرايت اللذة التى تحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتلك من السماء! . .
- نعم . . نعم . . احذف ثروة «روكفلر» .
- إذن فليكن لك فقط ما طلبت : شكل «كلارك جيبيل»
- وهذا يكفينى ، ولا أطلب غيره . .
- عظيم . . ستبقى أنت كما أنت ، ولكن فى صورة جميلة ، وطبيعى أنك
ستكون محبوباً من الحسان . . هذا لا مفر لك منه ، ولا حيلة لنا فيه .
- وما الضرر يا سيدى أعزك الله!؟

- لا ضرر . . ولكن . .

- ولكن ماذا . . صارحني بربك. وأرحني . .

- فنك ؟ . . أبقى هو فنك أو يصبح فن رجل آخر . . إنك تعلم أكثر مني أن الفن يتغير بتغير طبيعة القلب الذي يخرج منه . . إنه كالماء الذي ينبثق من الينابيع . . فهو حار إذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين ، بارد إذا صعد من أرض الأمن والاطمئنان .

- لم أفهم بعد . .

- لعل الأصح أنك لا تريد أن تفهم . . لكن لا بأس من أن أوضح لك ، ولن آتى بكلام من عندي . . حسبي أن أسوق إليك كلمة أنت نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك : «إن صاحب الحياة السعيدة لا يكتبها . . بل يحياها» .

- تريد أن تقول إنه إذا كان لي شكل «كلارك جيل» وحياته السعيدة فإني سأحياها ولن أكتبها .

- لست أنا الذي قالها ، بل أنت الذي قلتها ونشرتها .

- ومن أدراك أني لم أخطئ ولم أغلط . . أنا رجل كثير السهو والغلط . . لماذا لا أجرب ، دعني أجرب يا سيدى العزيز . . ماذا يضيرنا لو جربنا . . إن التجربة وحدها هي التي تلهمني وتهديني . . ولقد عازمت على أن أجرب بنفسى كل شيء ، وأن أهبط وأرتفع ، وأنهض وأقع فى أجواء الحياة والمجتمع ، فامنحنى شكل «جيل» ولا تحرمنى هذا الطلب الوحيد عافاك الله وأبقاك .

- لا تخدع نفسك . . أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة . . خذها منى كلمة صادقة : إذا تغير شكلك تغير تفكيرك وتغيرت نظرتك إلى المجتمع والحياة ، وأصبحت شخصاً لا علاقة له بتوفيق الحكيم ، لا من بعيد ولا من قريب . .

- أحسن . . وأنا لا أريد أن تكون لي بحضرتة أى علاقة .
- هذا شيء آخر . . ولكننا اتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ باسمك وشخصك وعملك .
- وبعد ؟
- وبعد فإن الله لم يترك شيئاً للمصادفة . . إنه خلقك هكذا لتنتج فناً هكذا . . فإذا تغير أنفك تغير فنك ! .
- وبالاختصار . . أيها الملاك . .
- بالاختصار أيها الأستاذ . . ليلتك سعيدة . وأحسن ظنك بحكمة ربك الذى لم يخلق شعرة من شعر رءوسكم عبثاً .
- وهكذا انتهى الحوار بينى وبين الملاك المفضل ، وأنا كما أنا لم أنل شيئاً ولم أربح شيئاً . . وتحرك الملاك ليرتفع من حجرتى عائداً إلى السماء . . فصحت به مستوقفاً :
- لحظة واحدة من فضلك . يظهر أن الحائل بينى وبين كل خير هو هذا الفن المزعوم . . أنا يا سيدى متنازل عنه . .
- تتنازل عنه من أجل شكل جميل ؟! . .
- المسألة فى نظرى تستحق المقايضة .
- أنت وما تريد . . ولكنها أنانية منك أن تضحى بعملك الذى تؤدى به خدمة عامة فى سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصة .
- أنانية . . أنانية أنا راض بهذا الوصف . . لكن غيرونى . . أنا طالب التغيير . . أنا حر فى نفسى ولا أحد شريكى .
- لك شريك . . هو وطنك . . فإذا وافق أهل بلادك على أن يؤخذ من بينهم «فنان» ليستبدل به «دون جوان» فلا مانع لدينا من إجراء عملية

الاستبدال .

وهكذا عقد لي الإجراءات بدل تبسيطها . . وارتفع سريعاً قبل أن ينتظرني
جواباً . . وتركني وحدي كما كنت أمام ورقى وحرى وحمارى . لم أتقدم ولم
أتأخر . .

(حمارى قال لي ١٩٤٥)

حمارى والنفاق

قال لى حمارى . وقد رآنى أتبها للسمر ذلك الصيف إلى رأس البر : أتذهب وحدك ؟ .

فخجلت منه ودعوته ، لأن الوفاء يأبى أن أتركه يصلى حر القاهرة وأمضى أنا بدونه إلى المصايف . . ولقد نزل مثلى ضيفاً معزراً مكرماً على « عشة » أحد الأصدقاء . وأفرد له مكان بجوارى . . وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا . . ويذهب معنا كل صباح إلى « خيمتنا » التى نصبت على الشاطئ ، وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة . كأنها معروضات الفيرينات . قد وضعت فيها محركات تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال . . وكان يحلو لى أن أغرق صامتاً فى مقعد بحرى طويل مريح ، وكنت قد أوصيت حمارى بالسكوت ؟ فنحن هنا للراحة لا للكلام . . وقد أذعن لرجائى فلم ينبس بحرف . .

إلى أن جاء ذات يوم إلى «البلاج» رجل من معارفنا . له جسم قد ترهل .
وكرش قد برز كأنه «فنتاس» غار . وهو يرتدى «الشورت» مع قميص قصير
الأكمام فقلت له :

- يا لك من رشيق ! . يا لها من رشاقة !

وهنا لم يتمالك الحمار ، وهمس قائلاً لي :

- أحقاً تراه كذلك ؟ .

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطاً :

- طبعاً . أراه كذلك . . ولماذا لا أراه كذلك ؟ !

فهمس الحمار لي وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

-- كيف لا أرى أنا بما تراه أنت ؟ ! ..

فقلت له مغيظاً :

- لأنك أنت حمار .

- فأجابني هامساً :

- ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق ؟ ! ..

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بصديقه ، وقد اطمأن إلى حسن منظره . وسارا

معاً على الشاطئ ، بعد أن يشا من ذهابي معهما . . فأنا لا أحب المشي .

وانفردت بخماري أصبح فيه :

- أنا منافق ؟ ! ..

- مهلاً . . مهلاً أنا لم أقصد إهانتك . .

- افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقاً ، ولكنها مجاملة

- مفهوم . إنها مجاملة . . والمجاملة هي النفاق الصغير . . هي كالحش

بالنسبة للحمار . . ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الإطلاق . . إني تأملت

نفسى ذات يوم وتأملتك وقلت : ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر
الآدميين ؟! .. نحن نأكل القول ، وأنتم تأكلون الفول . . وإذا كنا نحن نخبه ممزوجاً
بالتبن أو النخالة ، وأنتم تحبونه بالزيت أو الزبدة . . فتلك مسألة مزاح . .
ولا يجب أن نسميه فرقاً جوهرياً . . إنما الفرق الأساسى حقاً بيننا وبينكم : هو
أنكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه . . وقد عللت نفسى ومنيتهما بحلم جميل ، هو
أن تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوماً وأتوسل إليك أن تعلمنى النفاق .

- عجباً ! .. من علمك هذا الأسلوب الهازئ ؟! .

- إني لست أهزأ . . إني أقول الحد . . تلك عقيدتى :

لو أمكننى تعلم النفاق وإدخاله فى فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم . . إني
مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ . . وإني أعمل سراً على تنفيذه منذ زمن . . فلا تقف
فى وجه مطامعى وأمانى . . خذ منى كل شىء ، واعطنى النفاق ! .

- ماذا جرى لك ؟. هل جنت ؟. هل أتر فى رأسك هواء البحر النقى
وطعام مضيفنا الشهى ؟! .

- رأسى بخير . . ولقد سألتك شيئاً سوف يحدث انقلاباً فى تاريخ بنى
جنسى . ولكنك تبخل به علينا وتضن فلن ألح أو أثقل عليك بعد الآن فى
الطلب !

- أمرك غريب . . أبخل عليك بماذا ؟. أهو شىء عزيز نقيس أستكرهه على
مثلك ؟. هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص عليها الإنسان !

- أما أنا فقد سمعت أن النفاق له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية ، وأن أجود
أنواعه يوجد فى مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن .

- يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيثة .

- لقد قيل لى : إن النفاق الطويل التيلة . .

ماذا تقول ؟!

- نعم إنه كالقطن . . ألا ترى هذا ؟! . . ولعل السبب في تفوقه وتميزه بطول تيلته . إنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع ، فمثلاً من الجائز أن يعتنق الفرد رأياً مخالفاً للجماعة . فتنبض ضده الجماعة فيقع في داره صامتاً . . وهذا ما يحدث في كل بلد آخر . أما هنا فيحدث غير ذلك . . فلقد أخبروني أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالإلحاد ، فلم يكتفوا بالصمت . بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمامة الخضراء . . وأن آخرين عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة ، بل راحوا يتزعمون حركات الخبز على الورع . ونساء يرتكبن في السر الفجور ، وينادين في العلن بالفضيلة . . وسياسيين قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً ، فصنعوا هم لأنفسهم وجوهاً عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ . . وأسر أو عائلات توزع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب . كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق . ومرءوسين يداهنون الرؤساء على حساب الدولة . ورؤساء يراءون الشعب على حساب المصلحة ، وسيدات يردن العيب واللغو ويقلن للناس إنه البر والخير . وأهل دين يملئون الصحف ضجيجاً حول الأخلاق ، ويدقون طبلاً ضد الرذيلة . وما يقصدون في سريرتهم غير التظاهر والإعلان . . ورجال تقوى يأمرؤن الناس بالعفة ، ويستثنون أنفسهم وذويهم .

هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد . . أما الطرف الثاني وهو المجتمع فله نفاقه أيضاً :

فقد بلغني في ذلك أنه ما من مجتمع في غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! . . وهذا المجتمع يشتمز من اللص والآثم ، والشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من

هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضًا ، ويستقبله استقبال الأبطال ، بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المحجل لهذا المليونير .
والماضي المررى لذلك السياسى ، فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق .
هكذا يرأى المجتمع الفرد ، ويداهن الفرد المجتمع . . ولا يدري أحد أيهما مصدر النفاق . . لذلك قيل : إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أى الطرفين مصدر الآخر . . وكل الذى نعرفه أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة . . وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة . . فما قولك فى هذا ؟ . وهل ترأى ألمت بالموضوع ؟ .

- إني أراك بجرًا فياضًا ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟ ! .

- لا موجب للدهشة ، فأنت تعرف أن العلم النظرى شىء ووسائل التنفيذ شىء آخر . . فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى أى بلد ؟ ! . وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم ، ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى جنسى ! .

- لست أرى فى الأمر صعوبة . . إنه فى غاية البساطة . . أنا مثلاً صاحبك الذى تخافه وتهابه ، ولك عنده مصالح ومآرب . انظر إلى وجهى : ألا تراه جميل الصورة ؟ . .

- أبدًا .

- لا تنظر بعين رأسك . انظر بعين مصلحتك ! . .

- لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى .

- هذه العين افقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق ! . .

- أفقأ عيني وأصير أعمى ؟ ! . .

- هذا هو الشرط .
- وبماذا أرى الأشياء ؟..
- بعينك الأخرى : عين مآربك .
- إذن لو أردت إدخال النفاق في مجتمع بني جنسى ، ينبغي لى أن آمر جميع الحمير أن تفتح عيونها التى فى رؤوسها ؟ .
- فى الحال .
- وأن تحول مجتمعها إلى مجتمع من العميان ؟!
- بالضبط .
- وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟..
- ولم لا ؟.. إذا كنا نحن قد قبلناه ..
- اسمح لى أن أقول لك .
- صه .. أعرف ما ستقول . ولا داعى للإهانة ! .
- وهنا كان الصديقان قد أقبلتا عائدتين ، فأومأت إلى حمارى بالصمت .
- وغمزت له بعين رأسى وأنا أقول مشيراً إلى صاحبنا المترهل منشداً :
- أهلاً وسهلاً بالرشاقة كلها
- بالشورت والأكمام فوق الكررش !

(حمارى قال لى ١٩٤٥)

لِقائى بحمارى

عرفته فى يوم من أيام الصيف الماضى . فى قلب القاهرة . وفى شارع من أفخم شوارعها . كنت أسير فى ذلك الصباح إلى حانوت حلاقى . وكان الهواء حاراً ممزوجاً بنسيم لطيف . وكان صدرى منشرحاً ، فقد صادفت وجهاً مليحاً ، لغادة شقراء هبطت معى بكلبيها فى مصعد الفندق الذى اتخذته منزلاً ، مشيت وأنا أكاد أصفر بغمى وأترنم . وأشرفت على حانوت الحلاق . . وإذا أنا أراه . أرى ذلك الذى كتب لى أن يكون صديقى . رأيت يخطر على الإفريز كأنه غزال ، وفى عنقه الجميل رباط أحمر وإلى جانبه صاحبه : رجل قروى من أجلاف الفلاحين . ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون . ويجهال منظره ورشاقة خطاه يعجبون . لقد كان صغير الحجم كأنه دمية . . أبيض . . كأنه قد من رخام ، بديع التكوين كأنه من صنع فنان . وكان يمشى مطرقاً فى إذعان ، كأنما يقول لصاحبه : اذهب لى إلى

حيث شئت فكل ما في الأرض لا يستحق من رأسى عناء الالتفات
ذلك هو الجحش الصغير الذى استرعى أنظار الناس فى ذلك الشارع . ومنظر
جحش فى مثل هذا الحى كاف وحده لإلقاه العجب فى النفوس . ولكن هذا
الجحش كان ولا ريب جميلاً فى الجحوش . فقد كانت عيون المارة تتسع
بالإعجاب قبل العجب . ووقفت به سيدات إنجليزيات داخلات محل «حرولى»
فما تمالكن أنفسهن من إظهار الحب له . فلو أنه شىء يحمل لما ترددن فى اقتنائه
وحمله كما تقتنى الحلى وتحمل . وكان صاحبه يريد بيعه فيما خيل إلى . فلقد سمعته
يقول لمن أحاط به من مارة وباعة صحف وغلمان :

- بخمسين «قرش» !

وكانت قدماى على الرغم من تسيرانى مع الجمع المحيط بالجحش . وكانت
عينائى على الرغم منى لا تنحرفان عن النظر إلى هذا المخلوق الصغير الجميل وإذا
بفمى على الرغم منى ينطلق صائحاً :

- بثلاثين «قرش» !

فالتفت الجمع كله نحوى . ودار لفظ وارتفع كلام ، وإذا بى أرى رجلاً قد
انبرى من بين الجمع : هو بائع صحف يعرفنى ويبيعنى صحفه ، قد تطوع للعمل
باسمى ، فجذب الجحش من يد صاحبه الفلاح الحريص : وصاح فى وجهه :

- سيدنا البك أمر ، أمره يمشى على رقبتنا !

فأطبق الفلاح يده على عنق الجحش وصاح :

- ثلاثين قرش ! هو فرخة رومى !

- عيب يا جدع انت ترد على البك الكلام !

- والله ما أفرط فيه بأقل من أربع برايز !

وحمى الشد والجذب بين الرجلين ، حتى كاد ينخلع فى أيديهما عنق الجحش

المسكين . وانتهى الأمر بانتصار سمسارى المتطوع فقد صارت في يده البضاعة
قسراً . والتفت إلى قائلاً :

- هات يا بك الثلاثين «قرش» !
فتردد البائع وتراخى ولكنه أراد مع ذلك أن يحتج قليلاً فأغلق الرجل فمه
بقبضته وصاح .

- اسكت إلا «آخر شمك» ! هات يا سيدنا البك الفلوس واستلم الجحش
مبارك عليك ! بيعته حلال بنت حلال !

وتقدم نحوى صاحباً الحمار ليسلمني قياده الأحمر المتدلى من عنقه . هنا ذهبت
السكرة وجاءت الفكرة ، لقد تمت الصفقة من حيث لا أرجو في حقيقة الأمر
ولا أنتظر . فقد جرى كل شيء وأنا في شبه غيبوبة ، فالتمن الذي حددته بثلاثين
قرشاً إنما خرج من فمي دون تفكير أو تدبير . رقم لفظ على سبيل المداعبة . فإذا
الهزل يصبح جداً . . ودخل الآن الجحش في ملكي وحيازني . فما عساي أصنع به
الآن وأنا داخل حانوت الحلاق . وأين أصعه ولا منزل لي غير حجرة وحمام في
فندق معروف ؟

وفوق هذا فجيبى كان خلواً وقتئذ من مبلغ الثلاثين قرشاً . فلم أكن أحمل
ذلك الصباح غير ورقة مالية كان في عزمي أن أستبدل بها نقوداً صغيرة ، فأردت
الرجوع في الصفقة . فتعذر على الأمر . ولاحقني البائع والسمسار بالحمار .
فقلت منزعجاً مرتبكاً وأنا أشير إلى حانوت الحلاق :

- لكن . . أنا داخل أحلق . .
فأجاب بائع الصحف من الفور !
- «تفضل حضرتك احلق في أمان الله . وأنا أقعد لك «بلا قافية» بالجحش
على الباب في انتظارك !

فقلت متعلماً حائراً :

- وحتى المبلغ . .

فعاجلنى الرجل قائلاً :

- أنا أفك لحضرتك حالاً من عند الدخاخنى . . وسد الرجلان فى وجهى

المسالك ، ولم يشفع لى عندهما قول ولا حجة . ولم يفد اعتذارى . ولزمنى الحمار .

فأذعنت . وأشرت إليهما فتبعانى به إلى حانوت الحلاق . ودخلت . فقلت

للحلاق أن يؤدى عنى الثمن من صندوقه . فأداه . وانصرف الفلاح ووقف بائع

الصحف على باب الحانوت بالجحش . يطرد المتجمعين حوله من المارة والغلمان

وأهل الفضول . وأنا حالس أفكر فى الأمر وما أنا صانع بعد ذلك بهذا الحمل ،

والحلاق يلطخ ذقنى بالصابون ويتغزل فى جمال الجحش ويثنى على رزاقته

ويتحدث عما يلزم له من الغذاء والخدمة . ويتنبأ بما ينتظره من مستقبل باهر يوم

يغدو كالفرس الأشهب . . «وبقية «زبائن» الحانوب ينظرون إلى وإلى كل هذا

ويكتمون ضحكهم ويخفون فى رؤوسهم ما خالجهم فى أمرى من ظنون ، إلى أن

فرغت من الحلاقة فنهضت ودفعت الورقة المالية إلى صاحب الحانوت فأخذ ماله

عندى . وخرجت فاستقبلنى بائع الصحف . وقدم إلى زمام الجحش وهو يقول :

أطلقه حضرتك يجرى فى الجنيئة !

فقلت كالمخاطب نفسى :

لو كانت الجنيئة موجودة لهانت المسألة . .

فقال الرجل :

- أطلقه على السطح والا فى «الحوش» مع - من غير مؤاخذه - الحرفان .

فقلت وقد تخيلت مسكنى فى الفندق :

- وإن كنا نطلقه فى الحمام . .

فقال الرجل فاغرا فاه :

- الحمام . . ؟ !

فلم أرد على اعتراضه واستغرابه وقلت له آمراً :

اسبقني به على لوكاندة (٠٠٠٠)

نعم لقد فكرت في الأمر فوجدت أن هذا الححش الحميل ليس أهون قدراً ولا أقل طرفاً من ذلك الكلب الذي رأيته اليوم في صحبة الفتاة الشقراء . فما الضرر في أن يصحبني اليوم فأنزله ضيفاً على يقاسمني حجرتي حتى العصر ، لقد كنت أزمع السفر عصر ذلك اليوم بالذات إلى ريف قريب في مهمة غريبة ، يأتي بيائها عما قليل . . فليبق معي إذن إلى أن أذهب به إلى الحقول فأطلقه يرتع فيها ويمرح . على أن ما شغل بالي هو أمر طعامه اليوم . لقد كان الحلاق يتحدث فيما تحدث عن غذائه ، إنه لن يطعم غير اللبن فهو رضيع فيما يرى ابن يوم أو يومين وقد انتزع من ثدي أمه انتزاعاً ليباع في شوارع القاهرة ، ولعل ذلك لعسر وقع فيه صاحبه . فالفلاح إذا جاع باع كل ما يمكن أن يباع . من يدرى لعل هذا الرضيع اليتيم هو آخر حلقة في سلسلة شقاء طويل . ولم استرسل في التأمل فقد تجمع حولنا الناس من جديد . فأشرت إلى بائع الصحف أن يسرع بالححش أمامي وأنا أتابعه عن كثب . فجذبه من رباطه الأحمر . فشئ المسكين مشيته الرزينة في إطراره وإذعانه دون أن يعنى بتبدل الصاحب وتغير المصير . وجعلت أتأمله من بعيد في مشيته . إنها تشبه مشيتي أحياناً . إذ ينحيل إلى في لحظات كأن رأسي قد ارتفع عن لجة الوجود المنظور إلى فضاء الوجود غير المنظور . فأمر بالحياة مذعناً . لا أحفل بمن معي بمعرفة وجهتي .

نعم ، إن مشيتي كمشيته أحياناً ، ونظراتي أحياناً كنظراته الجامدة المشرفة على عالم ساكن صاف مجهول ، قد أغلقت دون الآدميين أبوابه السبعة المختومة بسبعة

أختام . . .

اللهم اغفر لي هذا الغرور ، إذ أرفع نفسي إلى مقام التشبه بهذا الكائن العجيب !

بلغنا الفندق . فأومأت إلى أحد الخدم الواقفين ببابه . فأقبل نحوي . وهو نوبى أمين اعتاد أن يقوم بخدمتي ويعنى بأمرى واعتدت أن أسخو عليه وأبذل له في العطاء . فلما دنا منى أريته الجحش في يد « السمسار » وطلبت إليه همساً أن يحمله بين ذراعيه ويصعد به « سلم الخدم » ويضعه خفية في حمام حجرتي . فحملني الرجل في وجهي بعينه . فأخرجت من جيبى قطعة فضية دسستها في كفه ، أفاقته من عجبه ، وهياته لصنع المستحيل . فأطبق على الجحش واحتضنه وذهب به وهو يتلفت يمينا وشمالاً خشية أن يراه من يسعى به لدى مدير الفندق .

ونظرت إلى بائع الصحف فرأيت يفر ككفيه في انتظار الأجر . فدفعت إليه هو الآخر قطعة فضية لثما سروراً وانصرف وهو يرفع يديه إلى السماء ويقول :
- ربنا يهنيك به ! ربنا يبقيه لك ! ربنا ما يحرق لك عليه كبدا !

وغاب عن عيني في منعطف الطريق . وأنا أنظر إليه ولا أدري إن كان يسخر مني أم يقول جدّاً .

ودخلت الفندق من بابه الكبير الدائر ووقفت في البهو قليلاً أتصفح وجوه النازلين فيه من سائحين وسائحات ، ثم ارتقيت بالمصعد إلى حجرتي في الطابق الخامس : ودخلتها فألفيتها كما تركتها ، كل شيء فيها قائم في مكانه على أحسن ترتيب . كتبي وورقي فوق المكتب ، وملابسي في الخزانة وفوق المشجب . و « جراموفوني » وأسطواناتي . وأواني الزهر فوق المناضد . وأصص الورد على حاجر الشرفة . لا شيء مطلقاً يدل على أن في هذا المكان « دابة ركوب » . واتجهت إلى الباب الصغير الموصل إلى الحمام الملحق بحجرتي وفتحته وإذا أنا أمام الجحش واقفاً

رزينا مطرقاً على عادته . فتأملته لحظة في إعجاب ، ثم تركته إلى هدوئه وصفاته ،
وعدت إلى الحجرة وضغطت على زر الجرس ثم ارتيمت في مقعدى الكبير إلى جوار
باب الشرفة . وما لبث باثني أن طرق على . ثم ظهر خادم الطابق .
فابتدرته قائلاً :

- واحد قهوة لى ، وواحد لبن لـ . . وأشارت عيني على الرغم منى إلى جهة
الحمام . ولكنى لم أستطع أن أتم الكلام . . فهذا الخادم ليس عنده بعد علم
بالموضوع .

فقال سائلاً فى أدب :

- لمين !

- لـ . . بعدين تعرف .

قلتها على عجل وأنا أومئ إليه بيدي لينصرف إلى تلبية الأمر . وذهب الخادم ثم
عاد بعد قليل يحمل صينية جميلة من «الكريستوفل» عليها فنجانان نظيفان
وأبريقان لامعان . ووضع أحد الفنجانين مع أبريق القهوة أمامى ثم وضع الآخر
مع أبريق اللبن تجاهى وجذب كرسيًا من ركن الحجرة وضعه أمام الفنجان الثانى ،
فما تمالكته نفسي من الابتسام . وخرج الرجل وأغلق خلفه الباب فى لباقة وكل
شئ فيه يدل على أنه قد فهم . . فهم ما قد يخطر على بال خادم فندق اعتاد أن
يحضر «طلبات» المواعيد اللطيفة ، فى الحلوات الظرفية .

وما كدت أدخلو إلى نفسى ، حتى أسرعى إلى الحمام بفنجان من اللبن وضعته
على «سجاد الفلين» تحت فم الجحش . وانتظرت أن يرشف هذا الصديق من اللبن
رشفة أو رشفتين ، فإذا هو جامد لا يتحرك وإذا عيناه تنظران إلى الفنجان فى غير
اكتراث كما تنظر عين الزاهد إلى لذات الحياة . فعجبت وقلت فى نفسى : هذا
مستحيل مهما يبلغ زهد هذا الفيلسوف ، فإن فنجاناً من اللبن لا يعد من الترف

في شيء . ولا أحسب بعد أن هذا المخلوق الصغير يستطيع أن يتحمل الصوم وقتاً طويلاً ، لابد من علة في الأمر . وأعجزني معرفة السبب . فأنا حديث عهد بمعرفة طباع هذا النوع الطريف من المخلوقات ، فإن جل معارفى منحصرة في ذلك النوع المبتذل الذي يسمونه النوع «الإنساني» . وهو على ما رأيت منه لا يأبى مطلقاً التهام ما يقدم إليه مما يؤكل ومما لا يؤكل . . حتى لحم أخيه . هو دائماً جوعان عطشان إلى شيء . وهو لا يصنع شيئاً إلا لغاية ومأرب ، حتى في صلاته وصيامه . ورأيت آخر الأمر أن أسترشد بالحلاق فهو فيما خيل إليّ أعلم بما لا أعلم من هذا الأمر . فتركت حجرتي وهبطت إلى الطريق سريعاً . ومشيت إلى حانوت الحلاق . إذا بي أعر «بالسمسار» فما كاد يراني حتى صاح بي باسمي :

- ازاي حال «اسم الله عليه» .

فضحكت وقلت له :

- اسمع يا . . إنت اسمك إيه ؟

- محسوبك دسوقي .

اسمع يا دسوقي . إنت مش قلت إنه يشرب لبن .

- معلوم يشرب لبن .

- وإيه رأيك أنه مارضاش حتى يلتفت للفنجان !

فحملق الرجل في وجهي وقال :

فنجان ؟

فقلت :

- أيوه . . طلبت له واحد لبن . .

فقاطعني الرجل صائحاً :

طلبت له واحد لبن !! هو من غير مؤاخذة سواح من السواحين !!

دا يا سيدنا البك جحش ابن يومين بالكثير بيرضع من بز أمه . دا لازم له من غير
مؤاخذة «بزازة» من الأجزاخانة .

فأدركت في الحال مقدار جهلى وغباوتى وقلت :

- آه ، صحيح ، عندك حق .

وتركته . وأسرعت إلى أجزاخانة قريبة فدخلتها وطلبت من فورى «بزازة»

فسألنى الأجزجى :

- الولد عمره أد إيه ؟

فارتبكت وقلت :

- والله . . . مش ولد . . .

فقال الأجزجى :

- البنت .

- ولا بنت .

فحملق الرجل في وجهى كالمخاطب لنفسه :

- لا ولد ولا بنت ! يبقى إيه . فيه نوع ثالث جديد ما اعرفوش ؟!

فأردت أن أوفر عليه مثونة العجب فبادرت قائلاً :

- هو في الحقيقة . . .

- آه مفهوم . . . مش ابن حضرتك . . .

- ابنى ؟! طبعاً لا ، مش ابنى دا جحش صغير .

- جحش ؟؟ آه . . . أنا آسف . . . لا مؤاخذة !..

وظهر على الأجزجى الحرج وأسرع بحضرى ما طلبت وقدم إلى زجاجة كبيرة

في طرفها ثدى من المطاط وقال :

- دى بزازة كبيرة تنفع كمان لجحش كبير .

لا مؤاخذه !..

فابتسمت وقلت له :

- العفو لا داعي للمؤاخذه .

ونقدته الثمن . وخرجت أحمل «البزازة» عائداً بها إلى الفندق . وصعدت إلى حجرتي فوجدت بابها مفتوحاً . وذكرت أني تركته كذلك سهواً عند ذهابي . واتجهت من فوري إلى الحمام ، ففطنت إلى أني نسيت إغلاق بابي أيضاً قبل انصرافي ، وألقيت من فوري نظرة في أنحاء المكان فلم أجد أثراً لصاحبي فأسقط في يدي . وحررت في أمري . أين وكيف اختفى ؟ أتراه خطف أم تسرب ؟ وخرجت إلى بهو الطابق . فإذا بي أسمع ضحكات رقيقة تنبعث من إحدى الحجرات . فمشيت نحو الصوت فألقيت نفسي أمام حجرة بابها مفتوح . وأبصرت الجحش واقفاً أمام مرآة طويلة لخزانة ملابس يتأمل نفسه ملياً ، وإلى جانبه الغادة الشقراء تضحك عن ثغر يسطع نوراً . . .

لم أدر ماذا أصنع . فلزمت موقفي أنظر ولا أنبس ، إلى أن حانت من الفتاة التفاتة شطر الباب ، فرأيتني ورأت «البزازة» في يدي . فأدركت ونشطت نحوى تقول :

- عفواً يا سيدى . . أهو . . ؟

-- نعم يا سيدتى . . هو . .

وأومأت برأسي إيماءة تفصح عن صلتى بالجحش ، فضحكت وأقبلت على

تقول :

- لقد كاد يحدث ثورة في الطابق منذ قليل ولكنها ثورة لطيفة . لقد جعل

يسير في البهو بكل اطمئنان ، ويدخل كل حجرة يجد بابها مفتوحاً ، ويتجه تواً إلى

كل مرآة بصادفها ، فيطيل النظر إلى نفسه . لقد سمعت قاطن الحجرة المجاورة يلفظ

صبيحة دهش . فلقد كان أمام مرآته يعقد رباط رقبته وإذا هو فجأة يرى في المرآة جحشاً . . قالت الفتاة ذلك وأغرقت في الضحك . فضحكت أنا أيضاً . ثم سألتها :

— وكيف استقر به المطاف في حجرتك ؟

فأجابت :

— بعين الطريقة . يبدو لي أنه انطلق من بين قدمي الجار منفزعا من صبيحته ، واتجه إلى بابي ، فدخل على غير استئذان وتأمل صورته في مرآتي بغير أن يعيرني التفاتاً .

فقلت :

— يا له من أحمق ! شأن أكثر الفلاسفة ! يبحثون عن أنفسهم في كل مرآة ولا يعيرون الجميلات التفاتاً !

فابتسمت عن ثغرها البديع ابتسامة رضا . وقالت وقد اتخذ وجهها هيئة الجد فجأة :

— حقاً لست أدري ما شدة اهتمامه بهذا الأمر .

فقلت :

لقد نسي فيما أرى شأن جسده وأنكر أمر « المادة » فهو لم يطعم شيئاً حتى الساعة .

فأشارت إلى « البزازة » في يدي :

ألم تقدم له شيئاً من اللين ؟

— قدمت له ذلك فلم يعجبه .

وقصصت عليها ما فعلت ، فضحكت مني كما ضحك السمسار من قبل .

وقالت :

- يبدو يا سيدى انك لم تكن قط أباً .

فقلت :

-- صدقت فراستك يا سيدتى . . ذاك أول عهدى بالأبوة ! فهدت يدها نحو

«البزازة» وقالت :

- إذا أذنت . . فإنى أتولى عنك هذه المهمة . فإن المرأة على كل حال أحذق

بمثل هذا العمل وأجدر .

- إياها منة عظيمة وفضل منك يا سيدتى . . لا أنساه . .

قلت ذلك وتركت لها الجحش وأداة إطعامه ، وقدرًا من اللبن ، أمرت بحمله

إليها . . وانصرفت إلى شأنى حامداً شاكرًا . .

(حمار الحكيم ١٩٤٠)

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالساً على إفريز المقهى المعتاد بجوار صديقي حسن «بك» . . وهو ليس من أصحاب الألقاب ولا حملة الرتب ، ولكن هكذا نناديه ، لأن حب المظهر شيء في دمه . والرغبة في «التظاهر» طبع فيه . . .
مر لي في ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمته ، ولم أكن رأيته منذ شهور . . وأمرت له بفنجان من القهوة . . وأخذنا في الحديث . . وإذا شخص يدنو مني مبتسماً متردداً ، فالتفت إليه وبادرته :

- من حضرتك ؟...

- أنا اسمي . . مرقص . .

- طلباتك ؟...

فقال على أذني هامساً :

- هل تقبل أن تكسب خمسين قرشاً في اليوم ، وأنت جالس في مكانك هذا . بدون أن تصنع شيئاً ؟

- بالطبع . . لا موجب للرفض . .
قلتها على البديهة ، كأها من وحي الشعراء .
فبادر الرجل يقول :

- إذن اتفقنا . وهذه دفعة على الحساب
وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشاً ، دسها في كفي ، فوضعتها على
الفور في جيبي ، وأنا أقول :
- اتفقنا . .

واصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذي انقطع بيني وبين حسن « بك » .
ولكن الرجل حدجني نظرة شديدة وقال :
- ألا تسألني عن أصل الموضوع ؟! ..

- أي موضوع ؟! ...

- لماذا إذن أعطيك هذه النقود ؟! ...

- وهل أنا أعرف ؟! ... كل معلوماتي في الأمر ، أنه قد تم بيننا اتفاق . . ألم
يحصل بيننا الآن اتفاق ؟ ألم يقع عرض وقبول ؟! ... أما من جهتي فقد قبلت
وانتهى الأمر . . بهذه المناسبة أحب أن أستفسر منك لماذا تعطيني هذا المبلغ ؟! ...
- أخيراً . . اسمع يا سيدي . . المسألة بسيطة . . أنت تجلس هنا دائماً تراقب
المارة في غير شيء ، فلن يكلفك جهداً أن تراقب سيدة يقال إنها تتردد على هذه
العمارة . . فتعرف لنا في أي ساعة بالضبط تدخل ، وفي أي ساعة تخرج ؟! ...
- وما شأنك بهذه السيدة ؟! ...

- لا شأن لي بها على الإطلاق ، ولم أرها قط . .

- عجباً! ... وما الداعى إذن لأن تجعلى « شرلوك هولمز » فى مسألة لا تعنىك ولا تعينى؟! .

فتنحرج الرجل ثم قال :

- فلنتكلم بصراحة . . لا أحسن من الصدق والصراحة . . أنا فى الحقيقة المكلف بهذه المراقبة فى نظير مبلغ جنيه ، ولكنى مشغول بعمل آخر ، وليس لدى الوقت الذى يمكننى من أداء هذه المهمة . . ففكرت فى أن أستأجرِكَ من الباطن ، ونتقاسم المبلغ . .

- عظيم يا مرقص أفندى . . أنت فى الحقيقة هو الذى لا يصنع شيئاً ويتقاضى خمسين قرشاً . .

- وأنت أيضاً لا تصنع شيئاً .

- كيف تقول ذلك يا مرقص أفندى ؟ ... أنا الذى سأقوم بكل المهمة . .

- بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصنى ؟ . فليكن ما تريد . .

أنا لا أحب أن أغضبكَ . . إليك عشرة قروش أخرى . .

- خمسة وعشرين من فضلك! ...

- تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه ، وأنا الربع! ؟

- هكذا العدل . .

فنفخ الرجل غيظاً . . ولكن لم يجد من القبول بدءاً . . فأخرج من جيبه فرق المبلغ ، ونقدنى إياه دون أن ينبس بحرف . . فوضعت النقود فى جيبى ووعدته خيراً ، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسى . . ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

- حضرتك لم تسألنى عن السيدة . .

- أى سيدة ؟ ...

- التى سراقبها . . كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف منى أوصافها ؟...
- حقيقة . . غاب عن فطنتى ذلك . . اذكر لى أوصافها . .
- خير من هذا أن أريك صورتها ، لتنطبع ملاحظتها فى رأسك جيداً . . إليك الصورة . . انظر . .

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة أطلعت عليها بجذرها وهى فى يده . . فقلت له :

- هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟..
- ليس هذا من المستحسن ، لأننى وعدت أن أحرص عليها ولا أسلمها لأحد . .

- ومن الذى أعطاك إياها ؟...
- لا يا سيدى ، هذه أسرار خاصة ، لا يجوز لنا الخوض فيها . . هذا لا يعنيننا . . فلنعمل فى حدود التكليف ، ولا ندخل لنا فى الباقى . .

- أهو زوجها ؟...
- لا أظن . .
- لعله خليلها ؟...
- ربما . . .

- خليلها يشك فى سيرها ويغار على سلوكها ؟!..
- فراستك فى محلها . . على كل حال هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه . . أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا فى الحفظ والصون .

- مفهوم ، مفهوم . .
- والآن . . أنا معتمد عليك . .

- اطمئن فقط لا أخفي عنك أن ذاكرتي ضعيفة ولا يعتمد عليها . فمن مصلحة العمل أن تترك لي الصورة ، ولول يوم واحد ، أرجع إليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط . . إن السيدات المارات كثيرات . . ومن الصعب على مثلي أن يفرز هذه من تلك . . .

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأسه قليلاً ثم مد لي يده بالصورة وهو يقول : « لا بأس . . أبقها معك اليوم » وأوصاني بالمحافظة عليها لحين ردها إليه في الغد . . وانصرف مرقص أفندي مشيعاً بعبارات التجلة والاحترام ، وما كاد يختفي عن بصري ، حتى ملت على جليسي حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها - مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشاً بالطبع - وختمت الكلام بقولي :

- أنت تعرف أن غفلي أكبر من فطنتي ، وأن سهوي أكثر من صحوي ، أما أنت فكثير الفطنة ، شديد اليقظة ، فمارأيك لو قمت عني بهذه المهمة . . وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التي سأطلعك عليها الآن ؟ . . . على أني قبل كل شيء أحب أن أصارحك بأن هذا عمل بأجر . .

فضحك حسن بك وقال :

- لا عليك . . إنني سأقوم به لوجه الله . .

- لا يا سيدي الفاضل . . الشغل شغل . . لا يوجد شيء اسمه لوجه الله . .

وهل تظن وجه الله يرى بلا ثمن ؟ . . هذا التعبير خطأ في خطأ . . ولست أدري من انتدعه . . إن وجه الله لا يشاها بالهجان ، بل بمصروفات . . وإليك البيان : لا بد

من دفع صدقة وزكاة ، وندور ، وفداء ، وكفارة ، ونفقات حج ، وتكاليف

زيارة وإغاثة ملهوف ، والتضحية في العيد بخروف . . إلى آخر تلك المبالغ التي -

لو جمعناها لكان الحاصل رقمًا لا يستهان به . فدع فكرة التبرع وتناول أجر عملك طبقًا للأصول المعمول بها في جميع الأحوال . .

- أمرك . . أنقذني الأجر إذن . .

- سأدفع لك تمن فنجان القهوة . . أتقبل ؟...

- قبلت . . .

قالها راضيًا مغتبطًا ، ومد يده ليتناول من يدي الصورة . . فقلت له :

- مهلاً . . يجب أن تردها إلى قبل قيامك . . فقد وعدت أن أردّها إلى

الرجل غدًا . .

فقال بابتسامة بريئة :

- طبعًا . . وما الداعي لاحتفاظي بها طويلاً ؟...

فوضعها في كفه . . فرفعها إلى عينيه باسمًا بغير اكتراث . . ولكن لم يكد

بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت يداه ، وارتعشت شفّته . وهالني

أمره . فقلت له :

- حسن بك . . مالك ؟...

فلم يجب . . ونخيل إلى أن أذنه لم تعد تسمع . . وجمدت عيناه على الصورة

وتصبب العرق من جبينه . . فهزرت يدي قائلاً :

- مالك يا حسن بك ؟... هل . . هل تعرفها ؟

فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

- كيف لا أعرفها وهي . . زوجتي ؟!...

وانتفض الرجل انتفاضة خلت روحه قد خرجت معها ، ووثب من مقعده .

وانطلق في الشارع يعدو كالمجنون . . ولم يلبث أن غاب عن نظري الشارد . وفكرى

الذاهل . . وكدت أصبح في أثره :

- الصورة . . الصورة . .

ولكنى تذكرت فجأة كارثته . وأدركت أنها له . . وأنه أحق أهل الأرض
بجملها والاحتفاظ بها . . فملكى نفسى وتاب إلى رشدى قليلاً قليلاً فلعلت
يومى . . ولعلت مرقص أفندى . ولعلت الخمسة والسبعين قرشاً التى خسرت من
أجلها صديقى ، وخسر الصديق زوجته ، وخسرت الروجه خليلها . . ولو كنت
أعلم أن المهمة ستؤدى إلى هذه الفواجع كلها ، لطالبت مرقص أفندى بما لا يقل
عن خمسة جنيهاً . .

(ليلة الزفاف ١٩٤٥)

أريد هدم نفسي

في ذات صباح دخل على حارس بابي وقدم إليّ خطاباً قال إن صاحبه ينتظر الإذن «بالمثول» . وفضضت الغلاف وقرأت الخطاب فإذا هو معجب متحمس قد ذهب الإعجاب برأسه فجاء من بلده وتحمل نفقات السفر كي يظفر بخمس دقائق يرى فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب . أو ذلك المخلوق العجيب الذي تتساقط من فمه درر الفن والأدب ، فتملاً أحواضاً حوله يسبح فيها بط وأوز من الفضة والماس وتنبت فيها أزهار من النور والبللور إلى آخر هذا الخيال الذي لمحت أثره بين السطور . وكان عندي وقتئذ أديب معروف اطلع على الخطاب وقال : هذا يذكرني بأحد الموسيقيين في القرن الماضي . مشى من بلده على قدميه ليرى «ريتشارد فاغنر» ، فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الأستاذ قائماً خلف زجاج نافذته ، وقفل إلى بلده غانماً باسمًا .

فقلت لصديقي :-

- لا محل هنا للمقارنة . فأنا لست «ريتشارد فاجنر» ، وصاحب الخطاب لن يقنع مني فيما يظهر بشبح مار خلف نافذة . لا تنس أنه دفع نفقات السفر ليرى مآظر قد صورها خياله منذ أيام وشهور ، وليعيش تلك الدقائق الخمس في جو عبق بأحلام وأوهام ساورته في ليال طوال وهو يقرأ ذلك «الهراء» الذي ملأنا به كتباً ذات ورق صقيل وطبع أنيق . أى خيبة ستصدم نفس هذا المسكين إذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب ! .

وترددت قليلاً . ولحظ صاحبي ترددي فقال :

- إيذن له على كل حال .

فأذنت . وليس في مقدوري أن أفعل غير ذلك . فإن رفض المقابلة في مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب . ودخل الزائر . فإذا شاب يتقدم في حياء واضطراب . سلم في احترام ، وجلس حيث أشرت إليه . ولبث صامتاً مطرقاً ينتظر مني أن أبدأ الحديث . ولم أجده أنا ما أقول له . وطال صمتنا . ورأى صديقي الأديب أن الموقف قد فتر وبرد إلى حد أخجل الشاب فوق خجله . فافتتح الكلام في لباقة قائلاً للشاب :

- أنت قرأت للأستاذ طبعاً . . .

فاندفع الشاب يقول في قوة ونحمس :

- كل شيء . كل شيء . من «أهل الكهف» الخالدة إلى آخر مقال ظهر في الصحف للأستاذ .

فلم أنظر إلى الزائر والتفت إلى صديقي الأديب وقلت :

- ألم تدركها الوفاة بعد «أهل الكهف الخالدة» ؟.. إن هذه «الخالدة» جديرة أن تموت «حرقاً» كما تموت الساحرات الكاذبات .

فاحمر وجه الشاب وأراد أن يقول شيئاً . لكنى مضيت فى كلامى .
- إني أرجو ممن يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة أن يقرأها بعد عشرة أعوام . فإن استطاعت أن تحتفظ بسحرها عشرة أعوام فقط حق لك أن تعجب وأن تغتبط .

فلم يطق الشاب صبراً وصاح بى :

- لا تقل ذلك لا تقل ذلك . . أنت ولا شك لم تقرأ . .

ولم يتم . فقد قاطعه صاحبي الأديب بقهقهة عالية وهو ينظر إلى

- أسمعت ؟ إنك لم تقرأها . . وإنك لتحكم على شىء ليس لك به علم . .

وحجل الفتى الزائر قليلاً وتمتم باعتذار خافت وقال :

- إني قرأتها كثيراً . لا أذكركم من المرات . فإذا لم تكن هذه القصة خالدة

فما هى القصة الخالدة ؟

- إنها «خالدة» إذا هبطنا بسعر «الخلود» إلى خمسة أعوام !

فاحتج الشاب وحرك يده على نحو عنيف فلم ألفت إليه وانتهت سطر صديق

الأديب وقلت :

- إني لن أنسى يوم شاهدت هذه «القصة» تمثل للمرة الأولى . لقد خرجت

من إطارها الساحر . هذا الطبع الأنيق والورق الفاخر . فإذا هى شىء هزيل .

لا يكاد يقف على قدميه . وإذا سحرها الوهمى الكاذب قد طار عنها كما يطير

الريش الملون عن الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الأزرق

والعصب الضئيل . هذه القصة التى لم تثبت «للتمثيل» أتستطيع أن تثبت

«للزمن» ؟ .

فتسلم الشاب ونظر إلى صاحبي الأديب نظرة المستنجد وقال له :

إني ما أتيت اليوم لأسمع هذا الكلام من الأستاذ فأجابه صاحبي باسمًا :

- إن الأستاذ أدرى بعمله منا

فقاطعه الفتى قائلاً :

-- لا . لا . لا . أبداً

فنظر إليه صديق دهشاً :

- ماذا تعنى ؟

فصاح الشاب فى حماسة :

- إن أعمال الأستاذ خالدة جميعها .

فلم أستطع كتمان ضحكى وقلت من فورى :

- أقسم أن الأستاذ الذى تتحدثون عنه لم يكتب سطرًا خالداً .

فنهض الشاب على قدميه منفعلًا وقال بصوت متهدج :

- إني لا أسمع لك . . إني لا أسمع . .

فأسرع صاحبي الأديب وهمس فى أذنى :

-- الزم الصمت . إني ألمح الشر فى عينيه . وليس بمستبعد أن يهجم عليك

ويشبعك ضرباً

فابتسمت وقلت للشاب فى هدوء ورفق :

- سنتفق على كل حال ذات يوم . . وربما فى يوم قريب . وسترى بعينيك أنى

أنا الذى كنت على حق .

فهدأ الفتى قليلاً ثم نظر إلى وقال فى نبرة الأسف :

لماذا تريد أن تهدم عملك ؟

- لأنه لا يساوى الآن شيئاً . لقد قام بمهمته وانتهى الأمر ، إن الفن طويل

والعمر قصير . وإن هذا الهراء الذى نكتبه ليس إلا محطات صغيرة نجتازها فى أثناء

السفر فى طريق الفن ؛ لا ينبغي أن نقف عندها ولا أن نرجع البصر إليها . إن

ما يهمنى الآن هو المحطة التى بلغتها اليوم والمحطة التى أريد أن أبلغها غداً : إني فى كل محطة يخيل إلى أنى فى مبدأ الطريق .

- إنه لتواضع .

- لا . إنه ليس كذلك . ينبغى أن تكون معى فى هذا السفر الطويل حتى تدرك أن «أهل الكهف» شىء قد مات ودفن منذ أعوام .

- إنها لم تمت .

- الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه .

- معذرة يا أستاذ . إني لن أصدق أن «بريسكا» ميتة الآن . مهما نقل ومهما تفعل . إني أسمع كلامها وأعيش معها . وأكاد أراها الآن . إن ملامحها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل . . كل هذا حى فى رأسى وقلبى كل هذا مصور فى مخيلتى تصويراً لا تمحوه كلماتك التى قلتها اليوم ولا أضعافها . إني كنت قد جئت لأحدثك حديثاً طويلاً عن «بريسكا» وأستزيد من خبرها ولكن . . أرجو أن تأذن لى الآن فى الانصراف .

ومد لى يده فجأة وودعنى فى صمت وذهب سريعاً وأنا أنظر إليه حتى اختفى وحال بينى وبينه الباب . وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسى ونظرت إلى صاحبى الأديب فإذا هو كذلك مطرق مفكر . وأخيراً التفت إلى وقال :

- ما كان ينبغى لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب المسكين .

- أو كان ينبغى لى أن أتركه فى وهمه مخدوعاً فى خلود كاذب ؟

- ليس من حقك أن تصدر على نفسك أحكاماً أمام الناس . إنك ما دمت

قد استطعت أن تخلق للناس أوهاماً جميلة وأحلاماً حلوة يعيشون فى جوها فإن من

الإثم أن تخرجهم منها بكلمة . ومع ذلك فكن على ثقة - أنهم لن يصدقوا

كلامك ، وأن حرصهم على هذه الأوهام التى ألفوها لأشد من حرصهم عليك .

أنت وعلى حقيقتك التي تزعمها . أترى لو بعث نبي من الأنبياء اليوم وجاء يهدم دينه الذي أتى به قديماً ، ماذا يكون شأنه ؟ أيصدقه الناس بسهولة أم تراهم يرمونه بالحجارة ويرمون به بالكذب والجنون ؟؟ إن تمسك الناس بالوهم الذي اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

- يا للعجب . ليس لي الحق إذن أن أهدم نفسي ؟ إنه الجنون أن أتصور أن ليس في استطاعتي أن أهدم نفسي .

- نعم وأنها لنعمة حرمتها المؤلف فيما حرم من أشياء . إن حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف !

(عهد الشيطان ١٩٣٨)

بيتنا الذى لم يتم

انتهى العام الدراسى . وجاء الامتحان . ونقلت - بقدره قادر - برغم مشاغلى الفنية - إلى السنة الرابعة النهائية . سنة الليسانس وتركت أمر «خاتم سليمان» فى يد زميلى مصطفى . وسافرت إلى الإسكندرية أقضى عطلة الصيف . فما كدت أصل وأنظر إلى منزلنا العامر حتى كدت أصعق . ما هذا الذى أراه أمامى ؟ . إنه ليس منزلاً . . بل هو تركيب عجيب لا أعرف له وجهاً من ظهر . لقد أزيل جدار وأقيم آخر ، ونخلع سلم وبرزت أحشاء قاعة بغير حائط ، وأطيح برأس السطح ، وأشياء أخرى غريبة من هذا القبيل . . وعرفت السبب : كان قد خطر ببال أهلى أن يجرؤوا فى المنزل إصلاحات وأن يزيدوا فيه طاباً . كان القطن فى ذلك العام مرتفع السعر ، فاجتمع لهم مبلغ لا بأس به . لم يروا أن يسددوا به رهن الأتبان أو رهن المنزل . ورأوا أن ينفقوه فى تحسين المنزل . ولست أدري من صاحب هذه

الفكرة النيرة . أهو والدى أم والدتى ؟.. كل ما أدرى هو أن أول تفرقة فتحتها
المعاول في جدران هذا البيت لم يستطع كل مال الأرض . لا مرتب والدى الكبير
وقتئذ ، ولا الأموال التى اقترضوها من البنوك والمرابين أن تسد هذه الثغرة . فقد
أصبح البناء والهدم في منزلنا هذا شيئاً طبيعياً مستمراً كالأكل والشرب . لا يقف
عند شهور ولا أعوام . ذلك أن والدى أراد أن يكون هو نفسه بنفسه المهندس
والمقاول وملاحظ العمل فأحضر البنائين والتجارين والحدادين . وصار يقول لهم :
شقوا هنا دهليزاً وأزيلوا من هناك جداراً وسدوا هنا شباكاً وافتحوا هناك باباً .. فما
إن يفعلوا ما أمر حتى يجد أن الباب بدلاً من أن يفتح على الردهة قد فتح على
المرحاض ، وأن الجدار الذى أزيل جعل المطبخ قد أصبح الصالون . وهكذا
وهكذا .. فيعود يأمرهم من جديد بسد ما فتحو وإقامة ما أزالوا ، ويتجه بهم إلى
جدار آخر يأمرهم بهدمه فيتضح أن عليه يقوم سقف إحدى الحجرات وأنه آخذ في
الانهيار ، فيبادرون إلى بنائه مرة أخرى .. كل ذلك وهو مصر كل الإصرار على
الاعتماد على نفسه وخبرته والامتناع عن إحضار مهندس⁹.

وكنت أتأمل ما يجرى من هدم وبناء ، وأتأمل من طول نومنا في حجرات
منزوعة النوافذ ومغطاة بالبطاطين فأقول له : لماذا لا تحضر أحد المهندسين يتولى
ذلك لنرتاح ؟.. فيجيبني ساخراً : « أنت عبيط !.. هل يحضر المهندسين
إلا العبيط !.. ما الذى سيصنعه المهندس أكثر من أن يرسم على ورق أزرق بضعة
خطوط منمقة بالمسطرة والبرجل ليقول لنا هنا حجرة وهناك صالة . و « يلطش »
كذا جنيته لمثل هذا الكلام الفارغ !.. ما سيقوله شيء معروف مقدماً .. ونحن
أدرى جيداً بما نريد !..

وانتهى الأمر بنا بكل بساطة أن صار البناءون والتجارون والمبيضون مقيمون

لدينا إقامة مستمرة لأن العمل لا ينتهى ولا يمكن أن ينتهى . فاتخذوا لانفسهم حجرة دائمة قرب باب الحديقة يقطنون بها . . . يبيتون ويسمرون ويأتى لزيارتهم فيها الأهل والأقرباء والأصدقاء ، وكان يتزل إليهم فيها من بيتنا القهوة والشاي والغداء والعشاء بانتظام . وأصبح لهم رأى فيما يطبخ ويقدم إليهم من ألوان يومية . فيقولون : « زهقنا من الملوخية والبامية اطبخوا لنا اليوم «كشرى» وأحياناً يقترحون : « خللوا لنا خيار وفلفل ! . » ويصفون الطريقة التى يحبونها للتخليل وصنع الطرشى !.. والحديقة حولهم جعلوا يزرعون فى جانب منها بعض الفجل والكرات والجرجير كانوا متمتعين بهذه الحياة الهنيئة الناعمة . وكنت كلما سألتهم : متى ينتهى العمل فى هذا المنزل ؟.. وقد أصبحت الحياة فيه بالنسبة إلى وإلى أخى الأصغر لا تطاق ، من الحجرات التى بلا حيطان ، والنوافذ التى بلا زجاج ، وضجة الخبط والهبد فوق رءوسنا فى الطابق الحديد . . قالوا : لن ينتهى !.. لأنها ساقية جحا . ما نبنيه الصبح نهدمه العصر !.. أوامر البك الكبير !.. وفى الحق كأتى بوالدى قد أصبح أخيراً يجد متعته وهوايته الكبرى فى حكاية البناء هذه . ويظهر أنه اعتقد حقاً أنه لا ينقصه شىء فى شئون الهندسة والمعمار كان فى بعض الأحيان يستشير صديقه المهندس القديم (يوسف .) إذا قابله بالمصادفة فى القاهرة . . لكن هذه المقابلة ما كانت تحدث إلا نادراً لأن والدى كان قد أقام واستقر فى الإسكندرية رئيساً لمحكمتها ، فكان إذا عاد بعد حضور الجلسة ، لم يتجه إلى الغداء وهو المتعب المهك ، بل يتجه مباشرة إلى البنائين والنجارين ليرى ماذا صنعوا وهل نفذوا تعليماته التى شرحها لهم شرحاً وافياً فى الصباح قبل ذهابه إلى عمله ؟.. تلك كانت عادته : يجمع البنائين والنجارين والمبيضين أمامه كل صباح ويشرح لهم ما هم صانعون فى يومهم ، ويسمى ذلك «الدرس» الذى لا بد أن يدخله فى رءوسهم ، موضحاً لهم ما يسميه أيضاً «جدول الأعمال» اليومى . وكان

لا يتركهم إلا بعد أن يسألهم بكل دقة : هل حفظتم الدرس ؟ .. فيجيبون جميعاً حفظناه . فيؤكد عليهم : وجدول الأعمال مفهوم ؟ .. فيقولون كلهم : مفهوم . ولا يكتفى بذلك . فقد كان من عادته عند إصدار أى أمر أى تعليمات لأى شخص أن يطالبه بإعادة المطلوب بنصه منعاً للبس أو سوء الفهم . فلما سألهم : أعيدوا على ماذا قلت ؟ .. وأجابوا قلت كيت وكيت وكيت ، مضى مطمئناً . فإذا عاد من عمله قبيل العصر سمعنا منه الصخب والصياح والتعنيف وقوله : إن هؤلاء البنائين والمبيضين حمير ولم يفهموا حرفاً مما شرح . وينزل بيديه على ما نوه هدماً وبقدميه ركلاً وهو يصيح : هداوا حالاً ! . كل هذا لا بد من هدمه ! .. شغل غلط فى غلط ! .. وكان يقيس الحيطان بعصاه التى يحملها دائماً فى يده . ولا يلجأ إلى القياس بالتر . فإذا عارضه أحد البنائين أو المبيضين أو النجارين وقال له : قس بالتر يا سعادة البك .. المتر موجود ! .. صاح به : عصاى أضبط من هذا المتر ! .. لأنى أنا ضابطها على المتر الهندسى الأصيل فى مصلحة المساحة ! .. إنها تسعون سنتى متراً بالتمام ! .. وبلغ به الاهتمام بالهندسة أن صار يمشى معى أحياناً فى الشارع فإذا به أراه يقف فجأة أمام أحد المنازل ويقول لى : انتظر حتى أقيس واجهة هذا البيت ! .. ويشرع فى القياس بعصاه . فإذا سأله : لم ذلك ؟ .. هل نحن سنشتريه ؟ .. قال لا أبداً . مجرد معرفة . . وأحياناً نسير فى شارع من الشوارع نتحدث فى شئون هامة وقتئذ ، فإذا هو يقطع الحديث ويلتفت نحوى سائلاً : « تظن يطلع كم متر عرض هذا الشارع ؟ .. ولا ينتظر منى جواباً . بل يرفع عصاه ويأخذ فى قياس عرض الشارع . وأحمد الله فى سرى أن الشارع خال من المارة تم سأله عن حكمة ذلك ؟ .. فقال : أنت ولد عبيط ! .. الحكمة فى ذلك هو أن نكون على علم بكل هذه الأشياء ، حتى لا يأتى المجلس البلدى يوماً ويدعى أن شارعنا من الشوارع التى قرر لها عوائد كيت وكيت ! .. وكان يحمل فى جيبه ساعة

معدنية رخيصة عتيقة يؤخرها دائما عشر دقائق ، فإذا سئل عن الحكمة في ذلك قال : « كى يكون عندى دائماً عشرة دقائق مدخرة للطوارئ » . . كان والدى على الرغم من كل هذه التصرفات الغريبة يملك مزية ، لم أرها عنه مع الأسف ، لست أدري لماذا ؟ . . ولو أرى ورثتها لنفعتنى كثيراً وخاصة في الفن الروائى . تلك المزية هي حرصه على التغلغل في التفاصيل الدقيقة لكل شئون الحياة . ما يهمه منها مباشرة وما لا يهمه ، كانت كمية المعلومات التى جمعها عن كل شىء تثير الدهشة حقاً . فهو يعرف بالضبط كم طوبة تلزم لبناء حجرة كذا متراً ، وكم كيلة تلزم لزراعة كذا فداناً من البرسيم أو القطن أو الذرة . وكم رية تلزم لرى كذا . فإذا سأله في القانون وإجراءاته المعقدة ، وفي أخلاق الناس على اختلاف مهنتهم في الحياة ، وفي الطب والأدوية ، وفي اللغة وقواعدها والشعر وبحوره . والحدادة والنجارة وحتى العطار . . كل شىء كان يلم فيه بتفاصيل عجيبة دقيقة . في حين لا أستطيع أنا أن ألم إلا بالخطوط العريضة للأشياء . في معانيها الكبرى لا في تفاصيلها . وأميل إلى التخفيف من كل ما أستطيع الاستغناء عنه . فأنا لم أحمل ساعة قط . ولم أحاول اقتناء طرفة من الطرف أو تحفة من التحف ، ولا أتناول إلا ما كان ضرورياً صرفاً . لذلك تناسبني التمثيلية أداة للتعبير ، لأن مجالها المعانى والجواهر أكثر من الرواية التى مجالها التفاصيل . على أن والدى بمعلوماته الغزيرة في أدق تفاصيل الأشياء ، ما إن يقدم على التفكير في مشروع أو القيام بتنفيذه حتى تبدأ الحية المضحكة . . إن العلم عنده شىء والتنفيذ شىء آخر . أو ربما كان العيب في اختيار المشروع . . لست أدري في الحقيقة أين تكمن العلة ؟ . . أهى مثلاً في التناقض وعدم التناسق بين النزعة الخيالية والنزعة العملية في شخص واحد ، إن والدى ووالدى عمليان ، ولكنهما خياليان في نفس الوقت . يفكران في مشروع عملي بعقلية عملية وإذا بالخيال يتدخل ويجرفهما إلى وضع مضحك ! . . أهو ذاك ؟ . .

لست أدري على التحقيق . . فلاكتف إذن بسر ما حدث بعد ذلك دون تعليق أو تفسير .

كاد ينتهى البناء فى المنزل ، وتم كل شىء بعد مضى وقت طويل ولكل شىء آخر ، وأخذ البناءون والنجارون والمبيضون المقيمون يعدون عدتهم للرحيل وينهون عهد الاحتلال . . احتلالهم للحجرة وما جاورها من الحديقة وإذا بخاطر بخاطر لأهلى . خاطر حديد : لاحظوا أن بعض منازل الجيران العالية تكشف حديقتنا من الخلف . فقالوا : نسد عليهم ، بأن نبنى حائطاً . ثم تطورت عندهم فكرة الحائط إلى شىء آخر وفكرة أخرى : قالوا ما دمنا صرنا إلى بناء حائط - وهذا يكلف مالا - فلماذا لا نتم هذا الحائط بحائط آخر أمامه ، ما علينا إلا أن نسقفه فينتج عن ذلك جناحاً قائماً بذاته يصلح للسكن والتأجير ، الفكرة بدت لهم منطقية . ومصيبة أهلى وخاصة والدى ، أنه يبدأ دائماً من المنطق . . وشرعوا فى تنفيذ الفكرة ، وعاد البناءون والنجارون والمبيضون إلى حجرتهم من جديد . . وتم بناء الجناح بعد لآى . فلما تم على خير . تأملوه ملياً ثم قالوا : حبذا لو وصلناه بالمنزل الأصلي بواسطة جسر أو كوبرى بينهما ، وكان منظراً فريداً عجيباً فى البيوت أن تتركب فيها مثل هذه الكبارى والجسور ! . . وتم ذلك . فنظروا وقالوا : لماذا نترك أسفل الجناح مكشوفاً لتراب الحديقة ؟ . . أليس من الضرورى أن ننشىء رصيفاً يفصل بين جداره الرمل والتراب ؟ . . وتم إنشاء الرصيف وكان طويلاً بطول جدار الجناح الذى لا يقل عن ثلاثين متراً . رصفوه كله ببلاط تكلف مبالغ . وأصبح منظره وهو مرصوف فى طوله وامتداده كأنه - كما قال أحد الزوار - أعد للعبة الانزلاق « الباتيناج » ! . . وتلك أيضاً كانت من عجائبهما فى البناء ! . .

أظن إلى هنا وكان ينبغى أن ينتهى كل شىء ، وأن ينهض البناءون والنجارون والمبيضون إلى حزم أمتعتهم ليرحلوا . . وهموا بالفعل . . وإذا البستانى يظهر ليطلب

أسمدة للحديقة : زكائب عديدة من سبله « الحيل » مما تسمد به الفاكهة والنجيل
أى الحشائش الخضراء . ويتحدث عن ضرورة توريد هذا السماد فى أوقات دورية
بانتظام لضمان ازدهار الحديقة . . وهنا فكر أهلى فى الأمر بالعقريّة المعهودة ! . .
وجاءتهم الفكرة النيرة : أن يشتروا حصاناً لاستخدام روثه سماداً . وبذلك يوفر تمر
الأسمدة المطلوب توريدها . فضلاً عن توفير نفقات المواصلات بالعربة التى سيجرها
الحصان . معقول ولكن أين يقيم الحصان ؟ . لابد طبعاً أن يبنى له إسطبل . وهذا
طبيعى . وفى آخر الحديقة مكان يصلح . لكن هل يبنى الإسطبل كبقية الإسطبلات
التي خلقها الله ! . . كلا . لابد من تصميم مبتكر للمهندس العبرى الذى هو
أبى ! . . وفعلاً أمر ببناء إسطبل عجيب الشكل يتكون من ثلاثة طوابق : الطابق
الأعلى لسكن الحوذى ، لأنه لابد أن يكون له محل سكن ، والطابق الأوسط
لسكن الحصان ، والطابق الأسفل للروث المتخلف عن الحصان ، يترلق إليه
بواسطة فتحة ويتجمع ويتكون منه السماد المطلوب للحديقة . . وكان والدى مزهواً
بهذه الفكرة الرائعة ، وحث البنائين والمبيضين والنجارين على التنفيذ فوراً . فبنوا
وشيدوا وبيضوا . وقامت الطوابق يعلو بعضها بعضاً . . وظل هذا البناء قائماً
شامخاً خالياً طوال الأعوام ، لم يسكنه قط حوذى ولا حصان ولا سماد . . ذلك
لأن التفكير انتقل بعد ذلك بسرعة إلى فكرة أخرى : استغلال هذا البيت الكبير
الذى تضخم بفعل الأفكار المتلاحقة ، حتى أصبح فضفاضاً على الأسرة .
بحجراته العديدة فى كل طابق ، علاوة على الجناح ذى الرصيف ! . . لماذا لا يؤجر
فى الرصيف للمصيفين ؟ . . رأى هو عين العقل . وما يأتى به من إيراد يسدده على
الأقل أقساط الرهون . لكنهم فكروا ملياً ثم قالوا : ما دمنا قد صرنا إلى التأجير
للمصيفين ، فلماذا لا ننشئ طابقاً ثالثاً . . وكانت الفكرة هذه المرة فكرة
والدى . فما إن سافر والدى متغيباً فى عمل بالقاهرة حتى قامت هى بالتنفيذ .

وما دام فن العمارة - هذه الطريقة فلماذا لا تسابق والدى فى المضمار . وفعلاً أصدرت الأوامر لفرقة البنائين والمبيضين والنجارين . فما أن عاد والدى من رحلته ووجد الطابق الجديد يرتفع حتى شمر هو أيضاً عن ساعد الحد . ونشط من جديد يعطى « الدرس » ويحدد للجميع « جدول الأعمال » ويهدم بالليل ما بنوه بالنهار . . . كان صيت والدى فى البناء قد انتشر فى المدينة بفضل ما كان يبتاعه من الطوب والبلاط والأخشاب السويدي والبغدادلى والكمرات الحديد والحير والزيوت . . . وأصبح زملاؤه فى القضاء ممن يريدون بناء منزل فى المدينة أو فى الريف يأتون إليه ليتلقوا عنه الدروس . أذكر مستشاراً ، صار بعدها بقليل وزيراً ، كان يأتى كل عصر يجلس فى الحديقة على كرسي يرشف القهوة التى تقدم إليه ويتطلع مهوراً إلى والدى وهو يصعد ويهبط على سقالات البنائين ، يقيس الجدران بعصاه ، ويأمر ويهوى وينصح ويشير وينهر ويصيح . . . كان هذا المستشار ينوى بناء منزل صغير فى أطيان له ولا يدرى كيف يصنع فلما رأى والدى يصول ويجول هكذا فى ذلك البناء الطويل العريض جعل بهمهم بالإعجاب والإكبار ثم التفت نحوى وقال بنبرة صادقة : « أبوك أستاذ لا يجارى فى فن المعمار ! . . » وأخيراً انتهت عمليات البناء . والله وحده يعلم بعد كم من الزمن . ولم يصبح فى الجعبة من الأفكار ما يؤدى إلى إضافة شىء أو الإنقاض من شىء . وهنا . . . بدأ أهلى يزهدون هذا البيت ويلعنونه ، خاصة وقد فشلت فكرة التأجير . لأن المصيفين كانوا قد بدءوا يتجهون إلى البحر ، وكان موقع البيت السيئ مما ينفر المستأجر . وكانت تكاليف البناء المستمر قد أجهزت أهلى ، والديون أثقلت كاهلهم ، وأسعار القطن أخذت فى الانخفاض . فاتجه التفكير كله إلى شىء واحد : التخلص من البيت لكن كيف يتم التخلص منه ؟ . . . رأى والدى لذلك طريقتين : إما البيع . وإما البذل على أطيان ، ولجأ إلى السماسرة . وكانت حكاية السماسرة لا تقل عن حكاية البنائين

والنجارين !.. لبثت أعواماً طويلة وأنا لا أرى والدى إلا مع السابرة في مجيئه
وذهابه وحله وترحاله فقد أصبح مستشاراً تم ترك الخدمة لبلوغه سن المعاش .
أو على الأصح لقبوله عرض وزارة الحقاتية في ذلك العهد ، عندما اكتشفت أنه
هو ونخبة من زملائه المستشارين القدامى قد أجادوا خضب وصبغ شعورهم
وشواربهم وجلسوا مطمئين ، فذكرتهم بأن سن المعاش على أى حساب يريدون قد
تجاوزها بسنوات وهم لا يشعرون . وتم الاتفاق والراضى . وترك والدى مع زملائه
المذكورين الخدمة . وتفرغ لشئونه الخاصة طول أعوامه الباقية ولا شغل له
ولا شاغل إلا مسألة بيع البيت أو استبدال أطيان به ..

وفي ذات يوم طلع بفكرة جديدة هي : زيادة أثقال البيت بالرهون وكانت
فكرته في ذلك عجيبة : وهي أنه كلما كان العقار أثقل بالديون - في زعمه -
كان تصريحه أو الاستبدال به سهلاً ميسوراً . ولم تدخل الفكرة رءوسنا ، وجعلنا
نقول له : كيف يكون ذلك ؟ وهل هذا معقول ؟.. إن العكس هو الصحيح ،
فكان يجب وكأنه يرثى لجهلنا : المعقول هو ما أقول : إذ من الذى يسعى عادة إلى
تقديم أطيانه ليستبدلها ببيت ؟.. هو ولا شك صاحب الأطيان المرهونة . وهو طبعاً
لا يتوقع أن يقدمها إلا في نظير بيت هو الآخر مرهون . إذ من المغفل الذى يضحى
بعقار خالى رهن ، ليأخذ عقاراً مرهوناً ؟!.. وما دامت المسألة كلها رهناً في رهن .
فلماذا نترك نحن بيتنا لنقدمه برهنه الخفيف نظيفاً إلى من سيقدم إلينا طيناً محملاً
بالدواهي الثقيلة ؟!..

منطق !...

ومنذ ذلك اليوم ووالدى لا يرى إلا في صحبة السمسارة ، فهو إما أن يسير في
الشارع ومعه سمسار ، وإما أن يجلس على قهوة في حديث مع سمسار ، روى لي
بعضهم أنه أبصر ذات يوم والدى جالساً بأحد المقاهي إلى مائدة على الرصيف ، في

انتظار أحد السماسرة . فكان كلما جاءه الجرسون يمسح المائدة لتلقى الطلب ، قال له : « انتظر يا أخى كمان شوية » . فینصرف الجرسون قليلاً ثم يعود إلى مسح المائدة ، إلى أن تضايق والدى فهض تاركاً له المائدة ، ووقف ينتظر على حافة الرصيف . فلما عاد الجرسون لمسح المائدة ووجدها خالية تلفت ، فوجد والدى واقفاً على طرف الشارع ينظر إليه شزراً ويقول : عاوز منى حاجة هنا كمان ؟! ...
أما أنا فقد أبصرته بنفسى ذات مرة فى الشارع ، وأنا أهم بدخول مقهى «الترينون» بالإسكندرية ، بعد توظيفى . . استوقفنى وقال لى :
«أنت عبيط تدخل هذا المحل . . فنجان القهوة فيه بثلاثة قروش صاغ ! » ...
وتركنى ومضى إلى قهوة بجوار البورصة اسمها «قهوة الن» الفنجان فيها بقرش ونصف . . ومع ذلك علمت - - وبالتناقض - أنه ينفق فيها كل يوم ما يقرب من ريال على فناجين قهوة عديدة يشربها السماسرة الذين عرفوا وتسامعوا عن بغيته ، فأخذوا يقدون عليه الواحد تلو الآخر يمينونه بالآمال والأحلام عن تصريف البيت . .

(سجن العمر ١٩٦٤)

فى المحكمة

كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالى ببابها مكدسين كالذباب ، وكان مساعدى قد خر إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ، فلأترققن به فى أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله ، وحيث المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضى حتى وجمت ، ففى المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشر الذى يعود إلى

القاهرة . ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا القطار لم يفت القاضي يوماً قط . أما القاضي الثاني فهو رجل ذو وسواس ، وهو بعد يقيم مع أسرته في دائرة المركز ، فهو يبطل في نظر القضايا خشية العجلة والغلط ولعله أيضاً يزيد شغل وقته وتسليه ضجره في هذا الريف وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ، فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا يفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة في أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيبني جلسته مر العذاب . فهي الحبس بعينه . وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتي لا أبدى حراكاً طول النهار ، وقد وضع حول عنقي وتحت إبطي ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهي لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تباعاتها^(١) علينا فندفع ثمنها في الحياة دون أن نعرف ؟

ووجمت لرؤية القاضي إذ أدركت أني وقعت في جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدري ما الذي طمس ذاكرتي فحسبت خطأ أن اليوم نوبة القاضي السريع .

دخلت الجلسة . وكان أول ما فعلت أن نظرت في « الرول » فإذا أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضي طول اليوم على أن القضايا دائماً عند هذا القاضي أكثر منها عند القاضي الآخر . والسبب بسيط : أن القاضي الموسوس لا يحكم في المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، في حين أن الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب

(١) مسئولياتها .

السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضي وشكا من ارباد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري العلة . فكنت أقول في نفسي « ارفع أسعارك ترما يسرك » وبدأ المحضر ينادى أسماء المتهمين من ورقة في يده . وقزمان أفندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا . وهو إذا نادى تعاضم في حركاته وإشاراته وصوته . والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الأمر الباهي . فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر . ولكن في مد وخن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايبا جنح ومخالفات . أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات . كله أكل عيش » .

ومثل أول المخالفين أمام القاضي الغارق في الأوراق . فرفع القاضي رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه . وقال للمائل بين يديه :

- أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أحرقت ذبح خروف خارج

السلخانة

- يا سيدى القاضي . الخروف . . دخنه . ولا مؤاخذه . في ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة طهور الولد .

غرامة عشرين « قرش » . غيره . .

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى . مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه . . وقد تركت القاضي يحكم وجعلت أروح عن نفسي بمشاهدة الأهالى الحاضرين في الجلسة . . وقد ملئوا المقاعد و « الدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات . . فجلسوا القرفصاء كأهم الماشية يرفعون عيونهم الحاشعة إلى القاضي وهو ينطق الحكم كأنه راع في يديه عصاً . وصاق ذرع القاضي بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :

- فهموى الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة . . !
وحملق فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المظار الراقص على طرف أنفه .
ولم يفتن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى
وقد تغير قليلاً نوع المخالفة ودخلنا فى نوع جديد فقد قال القاضى للمخالف الذى
حضر :

أنت يا رجل متهم بأنك- غسلت ملاسك فى الترة-
يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ؟ تحكم على بغرامة لأنى غسلت
ملاسى ؟

لأنك غسلتها فى الترة

- وأغسلها « فى » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جواباً . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين
لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب .
فهم قد تركوا طوال حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا
إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلى وقال :
- النياة . . .

- النياة ليس من شأنها أن تحت أين يغسل هذا الرجل ملاسه ولكن
ما يعنىها هو تطبيق القانون ! فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلاً وهز رأسه ثم
قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملاً :

- غرامة عشرين ! غيره .

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من
زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال
وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفرتة ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال .

فما إن مثل حتى ابتدره القاضي :

- أنت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك في الميعاد القانوني
فتنحج الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع .

- عشنا وشفنا الكلاب تتسجل «زى الأطيال» وتبقى لها حيثة^١
- غرامة عشرين . . غيره .

ومضت الأحكام في جميع المخالفات على هذا النحو ، ولم أر واحداً من
المخالفين قد بدأ عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غرم وقع عليهم من
السماء كما تقع المصائب ، وأتاوة يؤدونها . لأن القانون يقول : إنهم يجب عليهم أن
يؤدوها ! ولطالما سألت نفسي عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا
لقضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح
المحضر : «قضايا الجنج» ونظر في ورقة «الرول» ونادى «أم السعد بنت إبراهيم
الجرف» فظهرت فلاحه عجوز تدب في وسط القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين
يدى قرمان أفندى المحضر . . فوجهها إلى القاضي فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم
لم تلبث أن تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدي المحضر الهرم . وسألها القاضي
ووجهه في الورق :

- اسمك ؟

- محسوبيتك أم السعد :

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فغمزها قرمان أفندى ووجهها إلى المنصة
مرة أخرى وسألها القاضي :

- صنعتك ؟

- صنعتي حرمة^(١)

(١) ولية .

- أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة .
فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر :
- وحياة هيبتك وشييتك إني ما عبت أبداً . أنا حلفت ووقع مني يمين أن
البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو . .
فرفع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحاً :
- تعالى كلمي هنا . أنا القاضي أنا . العضة حصلت منك ؟ قولي نعم
أولا . كلمة واحدة :
- عصة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن كله إلا العض .
فصاح القاضي في المحضر : « هات الشاهد » فحضر المجنى عليه وقد لف بنصره
في رباط صحى ، فسأله القاضي عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين ألا يقول غير الحق
استوضحه الأمر . فقال الرجل :
- أنا يا حضرة القاضي لالى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة وما فيها أنى
كنت واسطة خير .
وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيه القاضي وهو
يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ، فبسط الرجل الأمر
قائلاً : إن لهذه المتهمة ابنة تدعى « ست أبوها » خطبها فلاح يدعى « السيد
حريشة » وعرض مهراً قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف
الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صى صغير يطلق
عليه اسم « الزنجير » فذهب من تلقاء نفسه إلى أهل العروس وأبلغهم كذباً أن
الخاطب قد قبل الشرط . ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول
بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصى ومكره بالطرفين أن حدد يوم
لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج

هذا ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت اوزة ، وما كاد الطعام يهيا ويقدم إلى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير . واحتدم الجدل بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول في صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة يا شماتة الأعداء والنبي ما سلم بنتي بأقل من عشرين . وخرجت المرأة في وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتحشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ، وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده في طعام وقام إلى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . في حين مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة ينهش منها نهشاً دون أن يدخل في النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا في طبق الأوز ولكن في فم العجوز ، فصرخ صرخة داوية وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعاً ، وخرج به وهو يحرق الارم : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذي تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه . .

واسترسل المجنى عليه في الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم ، وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا حلفت الشاهد اليمين » والتفت إلى قائلاً « يا حضرة وكيل النيابة أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فجعلت أتذكر . ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فحلف الرجل . فصاح به القاضى : « اذكر أقوالك من أولها » فعلمت أننا لن ننهى . وبلغ الصيق أنى وتشاءت وعرفت في مقعدى وقد عبث النوم بأجفاني . ومضى وقت لست أدري مقداره ، وإذا صوت القاضى يصيح بى : « النيابة ! طلبات النيابة » ففتحت عيني حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم . فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فإذا

الإصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هي فقد «السلامية» الوسطى للبنصر .
فاعتدلت في مقعدي وطلبت في الحال الحكم بعدم الاختصاص . فالتفت القاضي
إلى العجوز قائلاً :

- الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات .

يبدو على المرأة أنها فهمت الفارق ، فالعضة في نظرها هي ما زالت العضة .
فما الذي حولها من جنحة إلى جناية ؟ آه من هذا القانون الذي لا يمكن أن يفهم
كنهه هؤلاء المساكين !

ونوديت القضية التالية . فإذا هي شجار بالهروات وقع بين والد «ست أبوها»
وبين أهل الزوج (السيد حريثة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث
الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب
محتدًا صارخًا في وجوههن «جمل» ؟ بتي بنتي تخرج على جمل ؟ أبدًا لا بد من
«الكومبيل» .

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التي رماها بهم تطور العصر .
وأدى الجدل إلى رفع العصي وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها في
مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين في الخير ريالاً من جيبه
واستأجر سيارة من تلك السيارات التي تمر بالطرق الزراعية وحكم القاضي في هذه
القضية ثم صاح :

- «انتهينا من الفرح» و«الدخلة» على خير ! .. غيره !

فنادى المحضر بصوته الممتلئ «قضايا المحابيس» وذكر اسماً من الأسماء .
فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لاسي الخيش رجل فك الحارس قيده .
ونهض من بين المحامين أفندي ذوبطن كأنها القرية المملوءة وقال : «حاضر مع
المتهم» . «فقلت في نفسي» تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ في رءوسنا

ما تشاء بحجة حرية الدفاع . فلأغمض عيني منذ الآن فأرسي أحوج ما يكون إلى
لراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضي يقول للمحبوس :
- أنت متهم بأنك سرقت «وابور غار» . .

- أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت ولا نهبت .
فالتفت القاضي إلى المحضر قائلاً : «هات الشاهد» فحضر رجل على رأسه
لبدة بيضاء وعلى منكبيه «دفيه» فحلف اليمين وقال إنه أشعل «وابور الغاز» ليهبئ
الشاي لبعض «الزبائن» الجالسين داخل الحايوت فهو بدال رينى صغير يبيع
السكر والبن والشاي والتبغ ويجتمع لديه أحياناً بعض الناس كأهمهم في شبه مقهى .
ولقد وضع الوابور مشتعلاً عند عتبة الباب في الطريق ودخل يخصر الإبريق وما إن
عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وحمل الشاهد يسهب
ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق . والقاضي مطرق وقد علمت
من هيئته أنه يفكر في شيء آخر . وفجأة بظر إلى وقال كالمخاطب لنفسه : «أنا
حلفت الشاهد اليمين ؟» فما تمالكت أن صحت في ضيق : «سبحان الله ! أنا
سمعت الشاهد حلف» . فقال لى القاضي : «أنت متأكد ؟» فشعرت أن روحي
تفارقني فهمست : «نعم أنى أحلف لك أنه حلف ؟» فاطمأن القاضي بعض
الاطمئنان وأصغى إلى بقية الشهود في صمت وانتباه . ولم يطلق المتهم صبراً فنهض
بغثة كالمستغيث :

- يا حضرة القاضي ! في الدنيا «حرامى» يسرق «وابور جاز» بناره ؟ !
فأسكته القاضي بإشارة من يده قائلاً :

- تسألنى أنا ؟ ! أنا عمري ما اشتغلت «حرامى» ! ونظر إلى منصة الدفاع .
فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلاً : «يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف واپور .
ولا رأينا واپور . ولا مررنا في طريق به واپور . والقضية ملفقة من ألفها إلى

يائها . « وأراد المحامى أن ينطق فى هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

- حلمك يا أستاذ المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لى الوابور قدام باب الدكان

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

- هذا سوء دفاع من موكلى .

فأجاب القاضى فى هدوء :

- غرض حضرتك أن أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا إلى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة . وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمديله ويظهر إلى « زبونه » كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصاً لا يعى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس .

ونمت فى تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن فى اليوم التالى جلسة القاضى السريع . وقد كلفت مساعدى بحضورها على أن أحضرها معه إلى حوارته كى أمره على نظام الجلسات . وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدى فى غرفة المداولة متأبطاً مظروفاً به وسامه وهو فى انتظار القاضى . ولم يلبث القاضى أن جاء فى القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب . وهما يشتدان فى الخطى والقاضى ينخرج من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول له :
- اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واصح للبيض يا شعبان أفندى . والزبدة واللجنة على عهدتك . أوضع الحاجة فى السلالى « كويس »

وانتظرنى بها على المحطة فى قطر ١١ كالمعتاد . اطلع أنت السوق والأفندى المحضر
يقوم بدالك بالعمل !

وابصرف الحاجب سريعاً . ودخل علينا القاضى وسلم فى عجلة قائلاً .
- أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

- يا أفندى يا محضر احضر الجلسة الجلسة . وألقى بمعطفه التيل الأبيض
السفرى على كرسى . وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه فى الحال وأقبل
الفراش بالقهوة فشربها القاضى وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة .
ونحن فى أعقابيه . وصاح المحضر :
- محكمة !!

ونظر القاضى فى «الرول» وقال :

- قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف . لم ينق دودة القطن غيايى
خمسين قرش . تهاوى السيد عنيبة . . لم يقدم انه للتطعيم . « غيايى خمسين
محمود محمد قنديل . أحرز بندقية بدون رخصة . . غيايى خمسين والمصادرة .
غيايى خمسين . . غيايى خمسين . .

وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء . والمحضر ينادى مرة
واحدة حتى يلاحق القاضى . فن لم يسمع النداء عد غائبا وحكم عليه غيايياً .
ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

- أنت يا رجل تركت عنمك ترعى فى زراعة جارك ؟

- أصل الحكاية يا سعادة البك . .

- ما عندناش وقت لسماع حكايات . . حضورى خمسين غيره

عبد الرحمن إبراهيم أبو أحمد . إلخ إلخ . .

وانتهت المخالفات في مثل لمح البصر . وجاء دور قضايا الحنح وفيها سماع شهود
ومرافعة محامين وهي تحتاج إلى شيء من الأناة . فأخرج القاضي ساعته ووضعها
أمامه . وصاح في المحضر :

بسرعة القضية الأولى . .

فنادى المحضر :

- سالم عبد المحيد سنقر . .

فنظر القاضي في الرول وعرف التهمة والتفت إلى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة
باب الجلسة وصاح فيه :

ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة . . قل من عندك !

يا سعادة البك فيه راجل يضرب حرمة !

ممنوع الفلسفة كلمة ورد عطاها . ضربت ؟ نعم أولا ؟

لا .

فصاح القاضي في المحضر .

فحضرت الحرمة المضروبة تتعذر في «ملسها» الأسود الطويل . فلم ينتظر

القاضي حتى تدخل الجلسة . وصرخ فيها :

ضربك ؟

أصل يا سيدى القاضي ربنا يخليك . .

مفيش أصل . ضرب والا لا " هي كلمة لا عبر .

ضرب .

كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود . . كلامك يا منهم . فتنحى

لمتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضي مشغول عن سماعه بكتابة الحيشيات ومنطوق

الحكم على الرول بالرصاص إلى أن فرغ ورفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلى

الذين أو يتظر بقية دفاعه

- شهر مع الشغل

- يا سعادة القاضي أنا عندى شهادة . لا ضرت ولا بطحت الحكم ظلم

ظلم يا ناس .

- اخرس ! اسحبه يا عسكرى !

فسحبه العسكرى بعيداً . ونوديت القضية التالية . فحضر رجل هرم مقوس

الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضي :

بددت القمح المحجوز عليه ؟

القمح قمحى يا سعادة القاضي وأكلته أنا والعيال .

معترف . حضورى . حبس شهر مع الشغل .

شهر ! يا مسلمين ! القمح قمحى . زراعتى . مالى . .

فسحبه العسكرى . وهو ينظر بعينين زائغتين إلى الحاضرين كأنما هو لا يصدق

أن الحكم الذى سمع حقيقى . إن أذنه لا شك قد خانته . وإن اليقين عند الناس

الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد . لقد جاءه المحضر حقيقة فحجز قمحه وعينه

حارساً عليه حتى يسدد مال الحكومة . ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه

أفن ذا الذى يعده سارقاً ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم

هذا القانون الذى يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمره غرسه . إن هذه الجرائم

التي اخترعها القانون اختراعاً ليحمى بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست فى نظر

الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل

جريمة والسرقة جريمة . لأن فى ذلك اعتداءً ظاهراً على الغير . وأن الرذيلة الخلقية

فيها بديهية جليلة ، ولكن التبديد . . كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة

قانونية بظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها . وأسلم الشيخ أمره لخالفه .

وتسلمه الحراس وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . ! ونوديت القضية التالية ، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضي قد وزن « الدوسيه » في يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ، ونظر إلى ساعته ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ولم يجب ظني ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

– النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلى مرتبكاً ، فأسرعت قائلاً :

– بالعكس ، النيابة تعارض في التأجيل .

فأخنى القاضي امتعاضه وقال في شبه همس :

– ننظرها والسلام . هات الشهود . .

غير أن القاضي ذكر أن هذه القضية إنما هي قضية « معارضة » في حكم غيابي سبق فيها . وينبغي أن تقدم المعارضة في خلال ثلاثة أيام . فقرأ في الحال التواريخ وصاح من فوره في المتهم متنفساً الصعداء :

– القضية مرفوضة شكلاً يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد .

فلم يفهم الفلاح ذو « العرى » هذا الكلام . وقال :

– والعمل إيه يا حضرة القاضي ؟

– العمل إن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . احجزه يا عسكرى !

– الحبس بالزور يا حضرة القاضي ؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع كلامى

ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

– احرص ! معارضتك يا رجل بعد الميعاد ؟

– وماله ؟

– القانون يا رجل انت محدد ثلاثة أيام .

- أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف اقرأ ولا أكتب . ومن يفهمنى القانون
ويقربنى المواعيد ؟

- يظهر أنى طولت نالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مهروض فيك
العلم بالقانون . احجزه يا عسكرى !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو
وحده الذى لم يفهم ؟!

وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى يفترضون فيه العلم بقانون
«بالليون» !!

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووتب القاضى ناهضاً وعاد إلى حجرة المداولة ،
ونخلع وبسامه على عجل ، فإن قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن
القاضى تعود الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى اسرعه لم يفقد ثباته الداخلى
ولا اطمئنانه ، وتناول معطفه الأبيض ووضعه على زراعه وسلم علينا وانصرف إلى
المحطة فى شبه ركض ، وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات وخلفه
عسكرى يسحب مسجوناً والكاتب يصيح

- القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس معروضة على حضرة القاضى .
فقلت له فى الحال :

- الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب .

- فصاح الكاتب فى العسكرى :

- هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة .

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطاً فى
السلسلة كأنه كلب . وجروا كلهم خلف القاضى الراكض . هذا منظر مألوف لأهل
البلد فى يوم هذه الجلسة . فإن المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر

وتمضى فى «بوفيه» المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين . ويتحرك القطار وقدم القاضى
ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربىة الأخيرة وهو يقول :

- رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم

فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق «رخامة» مائدة البوفيه فى حين يتسلم
القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك «سلالى» البيض والزبدىة
واللحم . والحاجب يصيح بأعلى صوته :

- اللحم يابك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

(يوميات نائب فى الأرياف ١٩٣٧)

الطاجن وصل

كانت المشكلة التى تشغلنا أكثر مما يشغلنا عملنا هى مسألة الطعام . وهل فى ذلك عجب ؟. إن الطعام هو مشكلة الأمس واليوم والغد . . وهو الذى تقوم من أجله الحروب ! وتعقد من أجله المؤتمرات . . على أن مشكلتنا كانت أعوص من أى مسألة طرحت على موائد البحث . . لأنها لم تكن متعلقة بالطعام ذاته . . بل بطهو الطعام .

ولقد طرحنا وجوها على موائد الأكل . حتى انتهى بنا الأمر إلى قبول لواقع بغير بحث . .

كنا ثلاثة - منذ عهد بعيد طبعاً - نقطن مسكناً فى مدينة دمشق : قاضى البندر ووكيل نيابتها وهو أنا ولا فخر ، ثم قاضى ايتيى البارود . . وكانت النفقة بيننا بالثلث فى كل شىء . . وكان زميلاي متزوجين ، ولهما بيتاهما فى القاهرة . .

ولكن ضرورة العمل ونظام الجلسات اللذين يقتضيان بعدهما عن بيتيهما في العاصمة أربعة أيام في الأسبوع ، فرضا عليهما هذه التكاليف الإضافية . . فكان من مصلحتهما الاقتصاد غاية الاقتصاد . . وأدى هما خوفهما من ترك الحبل على الغارب أن قررا وضع نظام لثئون مسكنا يماثل نظام الجلسة القضائية في محاكم الاستئناف ، أى أن يكون الحكم للأغلبية . . فأنا مثلاً لا أستطيع أن أنفرد باختراع لون من ألوان الطعام إلا أن يؤيدنى واحد منهما . . وهكذا الحال مع الجميع . . وكان لنا خادم يقوم على خدمتنا ولكنه لا يفقه شيئاً في طهى الطعام . . وكان ضئيل المرتب ، فحكمت الأغلبية ببقائه مع عدم الاعتراض على ما يقدمه ويسميه مأكولا . . حتى جاء الفرج ذات يوم في صورة اقتراح تقدم به «حاجب الجلسة» الذى رثى لحالنا . . فقال أعزه الله :

– إذا شتم يا أصحاب السعادة فإن امرأتى تعد لكم الطعام فى دارنا كل يوم وأحمله إليكم ساعة الغداء . .

فوافقت الأغلبية على شرط أن يكون الطعام مما يطهى فى الفرن لنضمن البساطة والنظافة . .

منذ ذلك اليوم ونحن لا نأكل إلا فى «طاجن» من فخار . . قد اسود من القدم والدخان «وهباب» الفرن . . تلقى لنا فيه امرأة الحاجب قدراً من البطاطس وقدراً من اللحم . . يتناقص مع الأيام . . دون أن تنقص النقود . . فلا يكاد يكفى بطوننا . وفيها بطن قاضى إيتياى وهورجل عربى الأصل سليل قبيلة من قبائل البدو ، يضرب بلقمته قاع الطاجن ، فإذا أضخم اللحم وأطيبه قد وقع له . ولا يقوم من المائدة حتى يمسح قعر الوعاء بآخر كسرة ونحن نصيح فيه .

– اترك شيئاً لغداء الخادم ! .

– غداؤه على الله . . إن الله لا يترك مظلوماً ! . .

يقولها وهو ينهض عن الخوان يجرع من « القلة » ويتجشأ . . وصرنا منذ ذلك الحين لا نسمى خادماً باسمه . . بل أطلقنا عليه اسم « المظلوم » . . وجعلنا لا نناديه إلا بقولنا : « هات يا مظلوم كوب ماء » . . « امسح يا مظلوم الحذاء ! . . » وهلم جرا .

وكان يسمعوننا أحياناً بعض الزوار من الأصدقاء ، ونحن ننادى خادماً بهذا الوصف . . فيتساءلون دهشين :

- أ يوجد مظلوم بينكم ؟ وأنتم كلكم رمز العدالة ؟! فيقول قاضي إيتاي البارود ببديته الحاضرة :

- حيث توجد العدالة يوجد الظلم . .

وكان قاضي إيتاي يمضي إلى جلسته بقطار الصباح الباكر ويعود بقطار الساعة الواحدة ظهراً . . وهو يحرص على إنهاء جلسته في هذا الميعاد ليلحق بهذا القطار . . لأنه إذا فاتته فلن يجد أمامه غير قطار يصل إلى دمنهور في منتصف الثالثة ، والمجيء به ، لا قدر الله ، معناه المجيء بعد موعد الغداء وفراغ الطاجن وإنصاف « المظلوم » ! . .

وكنا نحن من جانبنا : أنا وقاضي البندر . . وعملنا متحد في جلسات الجنج . . والجلسة تشكل منه ومنى . . نحرص على إنهاء الجلسة قبيل موعد حضور القطار القادم من إيتاي البارود ، فقد تشاء أحياناً المصادفة السيئة أن يتم إنصاف الطاجن في الساعة الواحدة . . وأن يسبقنا إليه قاضي إيتاي . . فإذا حدث هذا والعياذ بالله ، فنحن أمام كارثة لا نستطيع لها دفعاً ولا رداً . .

أخذتنا ذات مرة حماسة العمل وكثرة القضايا المعروضة على المحكمة . . فنسينا الوقت ونسينا أنفسنا ، وإذا حاجب الجلسة ينظر في ساعته ويقبل مسرعاً يهمس بقرب المنصة :

- الطاجن وصل البيت من بدرى . وقطر إيتاي البارود وصل المحطة من رمان !..

- راح الغداء وعلينا العفاء

لفظها القاصى يائساً ثم نظر إلى قائلاً بصوت مرتفع :

- ما رأى النيابة ؟

- النيابة فوضت الرأى للمحكمة ..

- ترفع الجلسة للاستراحة .. على أن تعقد فى الساعة الخامسة بعد الظهر !..

ونفض من كرسىه يخلع وسامه الأحمر .. وأنا فى أثره أخلع وسامى الأحمر .

ووثبنا إلى قاعة المداولة نطرح فيها ملفاتنا .. وخرجنا إلى عرض الطريق راكضين ونحن نقول :

- يا نلحق الطاجن .. يا منلحقهوش !..

لبشنا على هذا الحال زمناً .. لا طعام لنا إلا طاجن البطاطس فى الفرن .. حتى

عاد قاضى البندر من القاهرة ذات يوم يقول لنا .. وكأنه ينبها من غفلة :

- يا لعجب أمرنا ! حتى مجرد الذوق كدنا نفقده !.. ذكرت لزوجتى عرضاً

مسألة الطاجن .. فدهشت وقالت : « ألا توجد عندكم صينية ؟ » هل يوجد ألد

من صينية البطاطس فى الفرن !.. دعكم من هذا الطاجن وجربوا الصينية

يا ناس ؟ » .

فصحنا بزميلنا الطموح :

- ومن أين لنا الصينية ؟.

- نشترىها .

- أنا لا أدفع أكثر من عشرة قروش !..

قالها قاضى إيتاي وهو يخرج نصيبه من جيبه قطعة فضية . وأخذنا

الأصوات . . فأقرت الأغلبية الموافقة على شراء الصينية على شرط ألا يتجاوز ثمنها ثلاثين قرشاً . . وبإدراكنا فأفصينا برغبتنا إلى حاجب الجلسة . فهرش رأسه ثم قال :

- صينية نحاس بـ «ثلاثين قرش»؟!..

مستحيل!.. أقل من خمسين أو ستين «قرش» . .

- هذا جنون!.. ستين «قرش»! لا . . لا داعي أبداً فلنبق على الطاجن إلى آخر الدهر!.. قلناها جميعاً بصوت واحد . وأقبل باب المناقشة في هذا الشأن . . وانتقلنا إلى جدول الأعمال . . ومضى كل منا إلى عمله . . قاضى إيتياى ركب القطار إلى محكمته . وأنا وقاضى البندر ذهبنا إلى محكمتنا حيث تنتظرنا أكداى المخالفات والجنح . . وظل حاجب المحكمة بباب الجلسة ينادى على القضايا . . وظلت القضايا تتوالى أمامنا . والأحكام تترى من فم المحكمة كأنها طلقات من مدفع حتى عرضت علينا قضية رجل اتهم بأنه ضرب زوجته بعصا فأحدث بها إصابات اقتضت علاجاً أقل من عشرين يوماً . . فما كاد الرجل يمثل أمام المنصة . حتى نهض محام يقول :

- حاضر مع المتهم . . .

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة . . فالتفت إلى القاضى . وفي عينيه نظرة فهمت معناها . . فأنا أيضاً كان يحول في خاطرى عين المعنى . . محام الآن؟!.. ومرافعة بإسهاب وبيان؟!.. ما من شيء بالطبع يستعجل هذا المحامى وما من خطر يهدد غداًه . . فإن الله لم يبتله بقاضى إيتياى . وبإدراك المحكمة تسأل المتهم بسرعة :

- اسمك ؟!

- محمد عبد المغيث شمروخ .

وأراد المحامى أن يتظرف فقال :

- اسمه «شمروخ» ولكن الضرب حصل بعصا رفيعة !..

فلم يبد على المحكمة التفات إلى ذلك المحامى «الرايق» . . وجعل القاضى يقلب فى أوراق الملف ويبحث عن التقريرالطى . وهو يتابع أسئلته بصوت آلى .

- عمرك ؟.

- حوالى خمس وثلاثين سنة .

- صاغتك ؟.

- صانع صوانى نحاس ؟.

وهنا حدث انقلاب فى هيئة المحكمة . . فقد ترك القاضى الملف ورفع رأسه ناظراً إلى المتهم باهتمام . . وكذلك فعلت النيابة . . وأقبل القاضى على المتهم يسأله بعناية :

- صوانى نحاس مما يستعمل فى الأكل ؟.

- فى الأكل وغير الأكل . . حسب طلب الزبون . .

- نقصد صوانى مما يطهى فيها البطاطس فى الفرن مثلاً ؟ !.

- بطاطس يا سعادة البك وفطير ومكرونة . . وكل لوازم الفرن . .

- قل لنا الآن بالضبط . . صينية نحاس تتسع لاثنتين بطاطس وأقة لحم ؟ . .
وعندئذ تدخلت النيابة فى شخصي . .

- لتكن بحيث تتسع لثلاث أقات بطاطس وأقة ونصف من اللحم . . يجب

أن نحسب حساب «المظلوم» !..

فوافق القاضى على ملاحظتى . . وقال مؤيداً :

- صدقت . . يجب منذ اليوم إنصاف «المظلوم» !..

وأشرق لهذه الجملة وجه المتهم ، فهتف من أعماق قلبه :

- يحيا العدل !.. أنت يا سعادة القاضى كلك نظر.. وعرفت أنى
مظلوم !.. فليحيا العدل !..

وظن المتهم أن المحكمة قد برأته .. ولم يفهم المحامى من الأمر شيئاً !.. فالمحكمة
لم تسأل المتهم بعد عن ضرب ولا لطم ، وتحرك المتهم للانصراف .. فبادره القاضى
صائحاً فيه :

- تعال يا راجل !.. قف مكانك .. ورد على أسئلة المحكمة !..

- محسوبك يا سعادة البك ..

- لنعد أولاً إلى مسألة الصينية .. وما هو الحجم .. حجم الصينية

المذكورة ؟..

ولم ير المحامى فى هذه المناقشة الغربية بصيصاً يمكنه من تتبعها ، فأخذ يقلب
على عجل أوراق صورة المحضر فى ملفه .. ويبرز رأسه حيرة وعجباً وعجزاً ..
وانتهى به الأمر أن قام يقول :

- يا حضرة الرئيس .. الضرب كما هو مدون فى محضر البوليس ومن أقوال

المجنى عليها حدث من عصا رفيعة وليس من صينية نحاس !..

- لحظة يا حضرة المحامى .. لحظة ..

قالها القاضى وهو ينظر إلى المتهم ماضياً فى سؤاله ..

- أخبرنا ما هو حجم الصينية بكل دقة ..

- هذا شىء حسب الوزن يا سعادة البك !..

- الصينية الصغيرة وزنها ثلاثة أرطال .. والمتوسطة ما بين خمسة وستة ..

فقلت للرجل من كرمى النيابة :

- اعمل حسابك على ستة أرطال !..

فصاح القاضى بقوله :

هذا معقول ! .. صينية ستة أرتال ..

وظفق المحامى المسكين يسمع هذا الكلام .. وهو كالمذهول ينقل عينه وأذنه
بين القاضى ووكيل النيابة والمتهم ، ويحاول أن يفهم مما يدور بينهم شيئاً فلا يستطيع
فيعود إلى ملفاته يقلب صفحاتها بسرعة .. وهو يقول كالمخاطب نفسه :
أنا قرأت القضية ، لو لم أقرأ القضية ..

ولم يطق صبراً فجعل يهيمهم فى مجلسه ويزفر ويهدر :
- لو كانت المحكمة تدلى أين ورد ذكر الصينية فى الأوراق . لا فى محضر
التحقيق ولا فى التقرير الطبى ولا على لسان الشهود .. ما من إشارة عابرة إلى
صينية ؟ سأجن يا ناس وأفقد عقلى ! .
ومع ذلك فكان عليه أن ينتظر مرغماً حتى تنتهى المحكمة من استجواب
موكله .. ففرك جبهته بكفه . وركز انتباهه طلباً للفهم .. والمحكمة ماضية فى
سؤالها ..

- وما سعر الرطل النحاس ؟ ..
- سعر السوق اليوم حوالى خمسة قروش .
- أى أن الصينية المتوسطة الحجم ثمنها نحو ثلاثين قرشاً ..
تقريباً ..

وكان حاجب الجلسة قد أرهف أذنيه عندما وصل الحديث إلى السعر .. فما
كاد يسمع أن الصينية ثمنها ثلاثون قرشاً حتى هاح وماج .. وزجر وصاح من
مكانه :

- تصدق المجرم ده يا سعادة البك ؟ ..
فالتفت المحامى . وقد أخذته البغته والدهشة من كل مكان .. فها هو ذا

حاجب الجلسة أيضاً قد دخل في الموضوع . . . وقد فهم المضمون . . . القاضي والنيابة والمتهم والحاجب . . . كلهم يتحاورون في أمر هو وحده الذي لا يدرك كنهه . هو المحامي الذي قرأ القضية وأعد مرافعته البليغة فيها . . . وهياً لها جوها حتى النكتة الرائقة ، والإشارة البارة . . . ودرس كل ظروفها . . . واحتاط لكل مفاجأتها . ها هي ذي مفاجأة ما كان ينتظرها . . . وما كانت لتخطر له على بال . . . كنت أبصر على وجهه في تلك اللحظة هيئة لن أنساها . لقد كان مضحكاً في حيرته إلى حد لا يتصوره . . . ولورآه لضحك هو منه حتى آخر حياته . . . ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلاً . . . فسرعان ما انتهينا من مسألة الصينية وعدنا إلى موضوع القضية الأصلية . . . واستطاع القاضي أن يحول دفة المناقشة بلباقة حتى دخل بها جوهر التهمة . كما يدخل الربان الماهر بالسفينة ميناء الأمان . بعد أن عبثت بها تيارات المحيط . . . وعاد إلى المحامي اطمئنانه عندما بدأت القضية تسير في محراها الطبيعي . . . فترافع ودافع كما انتهى ، ونسى لحسن الحظ مطلع المناقشة الذي حيره . . . ولم يسأل بعدئذ نفسه فيه . . . ولم يكشف له سره بالطبع حتى اليوم . . . هكذا عشنا فترة من الزمن . . .

نكد ونعبث ، ونعمل ونلعب ، ونخلط الجد بالهزل ، ونمزج الوقار بالضحك . . . ونغلف تبعاتنا بثوب من المرح ، ويصبغ لنا الشباب كل شيء بلون الخمر . . . وكانت لكلمة الغد في صدورنا خفقة ، كخفقة الورد وهو يتلقى قطرة الندى في كل فجر . . . وكان لكل شيء في أفواهنا طعم . . . ولو كنا نعرف أن لذة «الطاجن» القذر قد ذهبت معه ، ولن نجد لها بعد ذلك في أفخم الموائد ولا في أفخر الولائم . . . وأن حلاوة المناقشة في عشرة قروش لن تشتري فيما بعد بآلاف الجنيهات . لكنا قدرنا قيمة ما نملك ، وعلمنا أن السعادة كانت هابطة في مسكننا دون أن ندرك . . .

هكذا عشنا تلك الفترة إلى أن فرقت بيننا الأيام وبعثرتنا الأقدار . . فانتقل
قاضي إيتاي إلى جوار ربه ووصل قاضي دمنهور إلى أرقى المناصب القضائية .
وانتحييت أنا جانباً أدون من حين إلى حين صفحة من هذه الذكريات . .

(عدالة وفن ١٩٥٣)

عوالم الفرح

إلى

الأسطى حميدة الإسكندرانىة أول من علمنى كلمة «الفن»



العوالم

«كتبى هذه القصة الوصفية عام ١٩٢٧
بعنوان «العوالم» ، وهى وصف لطائفة
عوالم الأفراح التى كانت معروفة فى مصر
قديمًا ، وانقرضت الآن»

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق . . نزل الحاج محمد
المطيب* من عربة الدرجة الثالثة . . ووقف على الرصيف بجوار النافذة . . يحفف
عرقه ويسعل سعال أصحاب الكيف الذين يعيشون بأنفاس التعميرة . . ثم صاح :

(*) المطيب أو المطيباتى .. كلمة كانت شائعة عند هذه الطائفة وقتئذ ، ومعناها يقرب اليوم
من متعهد الحفلات .

- يا . . . الله . . . رمضان كريم . . .
وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة . . . وألقى نظرة اطمئنان سريعة على الأسطى
حميدة وجميع أفراد التخت . . . وقد انحشروا في مقعدين متقابلين بطرف العربية . . .
توسطهن صرر الآلات . . . ثم قال :
- أديني بلا قافية رستاتكم في ركن معتبر . . . خليكو بقا كده بإذن الله لحد
محطة سيدى جابر . . .

فرفعت الأسطى حميدة يديها إلى السماء بقوة :
- شيلله يا سيدى جابر . . . الفاتحة يا ولاد لسيدى جابر .
فصاح الحاج محمد بسرعة :
- بس حاسى . . . بلا قافية إيدك حاتوقع الرق من فوق الصرة على العود
تنقطم رقبتة .
- شر بره وبعيد . . . شيلله يا سيدى جابر . . . إلهى يحبر بخاطرنا . . . بسره
البائع . . . إلا يا حاج محمد . . . دى المستعجلة دى ولا المفتخر؟!
- المستعجلة . . . هو من غير مؤاخذة المفتخر يبقى فيه «ترسو»؟!
- هلبت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور . . .
- على أبو التسعين . . . حاتلاقوا حد من طرف بيت الفرح مستنظركم على
المحطة . . .

وعندئذ رنت ضحكة سخرية من سلم الرقاقة العاجزة أردفتها بقولها :
- وإن ما كانش حد فى استنظارنا يا ادلعدى . . . دى ساعة فطار وكل من
كان همه فى بطنه !..

فالتفت إليها الأسطى حميدة وقالت :
- النى تنسدى . . . وتحطى على ميلتك برش . . . العلوان معاية .

فابتسم الحاج محمد وقال :

- براوه عليك يا أسطى حميدة .. أهو بلا قافية إن ماكانش حد في
استنظاركم أديك معاك العلوان ..

وكان الأسطى حميدة بجلالة قدرها لم تفكر في العنوان إلا في هذه اللحظة ..
ذلك لأنها أخذت فجأة تبحث عنه في ملابسها وفي صدرها .. ثم التفتت إلى
فاطمة الرقاصة وقالت بقلق :

- بت يا فاطنة .. الورقة اللي اديتها لك فين .. واحنا في الحنطور؟؟
فأجابتها :

- ما هي ملفوف فيها الصاجات .

فدقت الأسطى حميدة على صدرها صارخة :

- صاجات يا بت ؟ .. الورقة اللي فيها العلوان .. إلهي يسخطك فتجهم وجهه

الحاج محمد قليلاً وقال :

- بقا بلا قافية مبش عارفين تستحرصوا على حنة ورقة ! ..

وهنا دق جرس المحطة الأول فصاح جميع أفراد التخت في وقت واحد بغير

نظام ولا ترتيب ..

- نشوف وشك في خير يا حاج محمد ..

ولكن الحاج محمد أشار إليهم بالسكون :

- هس .. له .. هس سمع .. له فاضل كمان من غير مؤاخذه جرس ..

ثم سعل وبصق وصاح :

- يا .. الله .. رمضان كريم ..

فقالت الأسطى حميدة وهي تبسم بنحيب :

- بحق يا حاج محمد .. دا أنت صايح .. إلهي يصبرك ..

فلم يحب الحاج محمد . . ولم يتنبه إلى ابتسامات الحبث والسخرية التي تبودلت بين جميع أفراد الجوق . . واستمر يتمم بذكر الله والصيام . . ثم رفع رأسه وقال :

- بقا فهتمم بالأقافية تعملوا إيه فى محطة سيدى جابر؟.. تسألوا على بيت محمد بك قطي زى اللى مكتوب فى الورقة . . محمد بك قطي من أعيان إسكندرية ألف من يدلکم عليه . .

وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد :

- هه . . يا جماعة . . مش لازمکم حاجة؟..

فصرخت سلم الضريرة :

- حاج محمد . . يا حاج محمد . . لازمنا قلة ميه . .

فأجاب الحاج محمد منتهزاً :

- قلة ميه إيه . . احنا فى رمضان يا ولية اتقى الله . . واختشى على

عرضك؟..

فهزت نجية الطبالة رأسها وقالت :

- حیکم . . بقا الميه يا حاج محمد والا التعميرة؟!

فصاح الحاج محمد بغضب :

- تعميرة إيه يا مرة؟.. وحق صيامى .

فقاطعته نجية :

- صيامك؟.. صيامك أنهو ده يا روحى . . ماتقولش كده أمال . . دانا

شايفاك بعينى الصبح فى إيدك الجوزة وقاعد تكح وتنبر!..

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الأسطى حميدة مغيرة مجرى الحديث فضا

للنزاع . . وقالت بعد أن غمزت الطبالة نجية بطرف عيناها :

الحاج محمد صايم زى مانا صايمة . . فضكم يا ولاد من السيرة الغيرة دى
فضكم . قطيعة . . آه . . حاج محمد . يا حاج محمد . شوفى يا ختى نسيت
أقول لك . . يادى الحوسة . . الأرانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد ماتنساشر
نرمى للأرانب فوق السطح قتر العجور . . أمانة عليك . . السيدة فى ضهرك !
وهنا دق الجرس الأخير . . وعلا الضجيج من كل جانب . .

وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت :

- نشوف وشك فى خير يا حاج محمد . .

وبين صياح الحاج محمد .

- مع السلامة . .

واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض حتى لم يعد فى مقدور الحاج محمد
ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة الأرانب أو جملة نشوف وشك فى خير من بين
هذه الأصوات المختلطة . . . ومع ذلك استمر فى هذا الصياح الغريزى كل من
الطرفين . . كأنما كل يصيح للصياح نفسه . . إلى أن ابتعد القطار . . وعندئذ هدأ
كل لنفسه . .

جلس أفراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق كأنما فراق مصر ولو لمهمة
قصيرة المدى أدخل على نفوسهن أثراً محزناً ووحشة مؤثرة . .

لم يقطع هذا السكون القائم غير صوت سلم الضريبة قائلة :

- يوه . . شوفى يا ختى نسينا نقول للحاج محمد يشتري لنا دخان . . بقا هو

سلامته باكة السمسون إلى معانه حايكفى طول النهار ؟ !

فلم يجب أحد . . واستمر كل فى سكونه وإطراقه . .

وأخيراً رفعت الأسطى حميدة رأسها قليلاً وتهدت ثم قالت بتأثر :

- يا حبيبى يا مصر ! . .

وكان هذه الجملة كانت تعبر تماماً عن إحساس الجمعة فاطرق الكل لحظة . .

ثم بدأ كل يرفع رأسه وينظر حوله ليرفه عن نفسه . .
فقلت سلم العاجزة :

- كلها بكرة ونرجع تاني لبلدنا . .

وقالت نجية الطالبة بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالي :

- وهي إسكندرية وحشة ؟ . . والنبي إسكندرية روح . .

وقالت فاطمة الرقاصة وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالي الملاصق :

- إسكندرية مريه وتراها زعفران . .

وهكذا أخذ يسرى عن الجميع . . وتتلاشى آثار الوحشة . . فعاد الصفاء إلى

وجه الأسطى حميدة وقالت :

- سلم . . لنى لى سجاره . .

تناولت سلم علبة الدخان وجعلت تلف سجارة فى حين أخذت الأسطى

حميدة تلتفت حولها متصفحة وجوه المسافرين . . ثم نظرت إلى فاطمة ونجية

وقالت بتهكم :

- حسرة وندامة على دول ركاب !

* * *

أصابت الأسطى حميدة . . فى الواقع أغلب الركاب كانوا من الصعايدة

والفلاحين . . ومع ذلك فإن الأسطى حميدة بعيونها الكحيلية لم تلمح خلفها

أصحاب المقعد التالى الملاصق . . أصحابه أربعة : ثلاثة أفندية . . ورابع يرتدى

(بنش) وطربوشاً .

وإذا أرادت الأسطى حميدة أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن هؤلاء الأربعة

من حين أن تحرك القطار لم يفتروا لحظة عن النظر إليها وإلى هيئة التخت ما عدا سلم العمياء . . وإذا أرادت الأسطى حميدة إفصاحاً فلتسل عيون نجية وفاطمة . .

لفت سلم السجارة . ثم دقت على صدرها قائلة :

- يوه يا ندامة الشوم . . ما معناش كبريت !..

وفي هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ودق على جدار العربة بكماشته وصاح :

- تذاكر قلوب ؟..

فصاحت سلم وهي تدبر وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

- يا حضرة المفتش . . مامعاش كبريت إلهى ما تغلب لك وليه ؟

فأجاب المفتش ببرود :

- كبريت إيه ؟

فقالت الأسطى حميدة متلطفة :

- متآخذناش بس نولع السجارة . .

فقال المفتش بتحفظ وبغير أن يلتفت نحوهن :

- أنتم فاطرين رمضان والا إيه ؟..

وكان قد وصل إلى المقعد التالى الملاصق فسرعان ما تنحنح لابس البنش ورأى

الفرصة سانحة للكلام فقال :

- الفطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش !

فلم يحب المفتش . . بل لزم بروده وتحفظه . . وجعل يؤدي أعمال وظيفته بجهد

جاف . . إلى أن ابتعد . . فقالت الأسطى حميدة :

- يا سم على ده مفتش !..

فردت فاطمة وهي تنظر إلى الأفندية أصحاب المقعد الملاصق :

- ياخنى حقاً ماله انط كده ومتعنظ بعيد عنك ؟!

فتتنحج لابس البنش وقال :

- ما هو الى زى ده من غير مؤاخدة فاهم نفسه الحكومة . .
فصادقت فاطمة على كلامه . . ثم أخذ الجميع العوالم من جهة والأفندية من
جهة أخرى يتحدثون لحظة على حساب هذا المفتش . . إلى أن قال أحد
الأفندية .

- جرى خير . . الحمد لله . .

وقال الثانى بلطف :

- الكبريت معانه يا ستات . .

وزاد الثالث :

- ومعانه سجائر كمان . .

ثم تنحج لابس البنش وقال :

- حضرتكم نازلين فين . . ولو فيها رزالة ؟ . .

فردت سلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجائر :

- سيدى جابر يا ادلعدي . .

فصاح الرجال :

- زينا بقا . سكة واحدة إنشاء الله . . احنا نازلين اسكندرية . .

وأضاف أحد الأفندية :

- الليلة باذن الله نصلى التراويح فى سيدى أبو العباس . .

وتنحج لابس البنش مرة أخرى ثم قال :

- أظن حضرتكم مسافرين فى فرح ؟ !

فقالت الأسطى حميدة بعظمة وتفانجر :

- أيوه يا فندم . . فرح اسم الله محمد بك . محمد بك ايه يابت يا فاطنة ؟

- فردت فاطمة بسرعة :
- محمد بك قطي ..
- فنظرت الأسطى حميدة إلى الأفندية وقالت :
- محمد بك قطي من أعيان إسكندرية على سن ورمح ..
- أنعم وأكرم ..
- أردف أحد الأفندية : - محمد بك قطي .. أظنه راجل كبير ؟!
- فأجابت سلم العاجزة :
- العريس ؟ لا وحياتك إلا حته جدع خفة مشلبن يشفى العليل !..
- فالتفت إليها نجية قائلة :
- إنت يعنى شفتيه !!!
- فردت سلم :
- الحاح محمد كان يقول العريس جدع صغار ..
- و في هذه الأثناء أخرج أحد الأفندية من جيبه علبة السجاير وأدارها على أفراد التخت وقال وهو ينظر إلى فاطمة الرقاصة :
- أظن الست الصغيرة هي اللي حاتلم النقطة ؟
- فأجابت فاطمة بدلال :
- أيوه يا فندى ..
- وقال آخر وهو ينظر إلى نجية :
- والست أمال إيه ؟.
- فأجابته نجية بابتسام :
- دربكة يا فندى ..
- وقال الثالث لابس البنش للأسطى :

- احنا من حق بدنا نتشرف بالاسم الكريم ..
- فأجابت الأسطى حميدة بخيلاء :
- حميدة المحلوية .. واسأل في حنة باب الخلق ألف من يدلك :
- فقال الجميع باحترام :
- أنعم وأكرم ..
- ثم قال أحدهم وهو يشير إلى العود ..
- حضرتك بقا الأسطى العوادة ؟ ..
- فأجابت : أيوه يا فندم ..
- فتنحنح لابس البنش وقال :
- ما شاء الله .. ما شاء الله .. العود سلطان الطرب .. يا سلام ! ..
- وقال آخر :
- معلوم .. دا أبو المغنى والحظوظ ..
- ثم صمت الجميع لحظة .. قطعها سلم بقولها :
- يعنى ما حدش سألنى أنا رخره أبقى إيه ؟ ..
- فارتبك الرجال وخجلوا قليلاً وتمتموا باعتذارات واهية .. ثم أراد أحدهم التخلص من هذا الموقف فأخرج من جيبه علبة السجائر وأدارها من جديد على أفراد التخت .. غير أن سلم بعد أن مدت يدها وتناولت سيجارة قالت عابسة :
- بس كتر خبيرك يا فندم .. احنا مانشرش غير سمسون فرط ماركة الغزالة !
- وهنا كان القطار قد وصل إلى محطة قلوب فأبى الأفندى إلا أن يشتري لسلم باكه سمسون من المحطة ..

* * *

ما غادر القطار محطة قلوب حتى كانت العلاقة قد استحكت تقريباً بين

أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة التخت . . فتنحنح لابس البنش وقال :

- بقا يا أسطى حميدة صلى على النى . .

فقلت :

اللهم صلى وبارك عليه . .

فاستطرد لابس البنش :

- بقا إحنا ولا مؤاخذه ناس صايمين ، والصاييم له الحق فى التسالى . . ولا أنا

غلطان ؟!

وأردف أحد الأفندية :

- والله تكسبوا فينا ثواب !

وزاد آخر :

- لا . . وكمان يبق زكا عن فطاركم . .

فأجابت الأسطى حميدة وهى تزجج حاجبيها بعود ثقاب :

- صوتى مبحوح شوية . .

فقال لابس البنش :

- صوتك المبحوح ده سلطان الطرب .

وقال أحد الأفندية :

- أنا عايز أسمع فى العشق قضيت زمانى لأن نعيمة المصرية . .

فقاطعته الأسطى حميدة صائحة باحتقار :

- ياد هوى . . نعيمة المصرية تعرف تقول فى العشق قضيت !

فقال الأفندى بنجث :

- ما أنا بقول كده برده . .

وهزت سليم رأسها ثم قالت :

يا حضرة الأفندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمة المصرية . .

فأجاب الأفندى :

- أيوه ما هو أنا ناوى ما اسمعهاش .

وصادقت الأسطى حميدة على قول سلم برأسها تم صاحت بحماس وخيلاء :

- قولى له . . قولى له . . أنا مين ؟! دا أنا حميدة المحلوية يامرغرات . .

فصاح لابس البنش باحترام :

- مفهوم يا فندم . . ونعم . .

وفى أثناء حماس الأسطى حميدة انحدر رأس ملايتها بدون أن تشعر فظهر الصفا الذهبى البراق الذى يزين شعرها كما ظهر منديل الترت فى مقدم رأسها يخطف الأبصار . . وتنبه الرجال إلى ذلك فأخذوا يحتلسون النظر إلى شعرها بين فترة وفترة . . ولاحظت ذلك منهم فاطمة الرقاصة فأسرعت بتنبيه الأسطى مخاطبة إياها باللغة الاصطلاحية بين العوالم :

. أطسا . . يا أطسا . أفصك نايب . أى «أسطى يا أسطى . صفاك

باين . . » ولكن الأسطى لم تسمع أو لم ترد أن تسمع متشاغلة بتزجيح حاجبيها بعود الثقاب . . ولاحظت نجمة الطباله أيضًا نظرات الرجال إلى شعر الأسطى فسرعان ما انضمت إلى زميلتها فاطمة فى تنبيه الأسطى :

- أطسا ، أفصك نايب يا أختى . .

فلم تنبه الأسطى . . وانتبه أحد الأفندية إلى هذه الجملة الغريبة . . فلم يفهم معناها وقال :

أطسا . . أطسا دى فىن ؟.. دى وجه قبلى . .

فقال لابس البنش :

- لا لا . . دول بيضربوا بالسيم . .

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الأسطى حميدة ولنظرات الأفندية لشعر الأسطى .
فصاحت بغيظ :

- ياختى ماتسمعى أمال .. أفصك نايب ..

ورددت نجية كذلك بغيظ وغيره :

- ياختى الحق أفصك باين ..

فأنتبه أحد الأفندية وقال ضاحكاً :

- أفص مين اللى باين ٢٢ ..

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

- يوه .. يادهوتى .. شوفى ياختى .. قال بدى أقول أفصك نايب

قلت أفصك باين ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة .. هى التى نبت الأسطى فالتفتت ونظرت إليها

شزراً ثم قالت :

- هلبت انسختى لما ترعى الصهلولة كده فى وسط الباجور ..

فقالت نجية :

- أصلى غلطت وأنا بضرب بالسيم قطيعة !

وعادت الأسطى حميدة إلى حاجبيها وعود الثقاب فقال لابس البنش

بتوسل :

- يا أسطى حميدة .. أنا محسوبك .. التقل على الصايمين حرام ..

فأجاب الأسطى بتيه ودلع :

- حاضر .. من عيني ..

فقال أحد الأفندية :

- « فى العشق قضيت » ..

فأجابت الأسطى بدلال :

حاضر .

فقال أفندى آخر :

- مش حاضر وبس . لا . . إحنا محاسيك . .

فقالت الأسطى :

- من عيني . حاضر . .

فقال لابس البنش مشيراً إلى العود :

- العود ما هو جنبك أهو يا أسطى حميدة . .

فأجابت بتقل :

- حاضر . . حالاً . .

ثم نظرت إلى نجية وقالت بصوت يسمعه الأفندية :

- آه . . ياما روى بتشفشف على فنجان قهوة سادة . .

فقال لابس البنش :

- لك علينا يا أسطى حميدة لما نوصل بنها . .

وقال أحد الأفندية منتهزاً الفرصة :

- مش نسمع « في العشق قضيت » يا أسطى حميدة والا إيه ؟ إحنا نرجوك

رجا خصوصى . .

فأجابت الأسطى بدلال وتقل بنت الكار :

- حاضر . . امسكى الرق يا سلم . .

ثم نظرت إلى فاطمة وسألتها همساً بالسيم :

- بت يا فاطنة . . بصى فى وشى . . هلّبت ما حاجب خفيف وحاجب

تقبل ؟! . .

وفي هذه اللحظة حضر المفتش ليفحص تذاكر من ركب من قلوب . . فقال
لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظة :

- مازادش عليكم حد .
فأجابته الأسطى حميدة وهي تخط حاجبها الحفيف بعود الثقاب . .
- ما زاد علينا الا الخطوط . .

فانصرف المفتش خشية أن تنقص هيئته بمزاج هذه الطائفة . .
وما كاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر . . حتى دوى في العربة صوت هيئة
التخت بأكملها مع الآلات جميعها من عود ورق ودربكة :

« في العشق قصيت رمانى
وهى اليوم يكفانى
آه أنظروا جسمى السقيم »

فوقف المفتش مبهوتاً ووقف كل القطار على رجل . .
يونيو سنة ١٩٢٧

(راقصة المعبد ١٩٣٨)

المدهد اليتيم

يا «معلم شحاته» ! ..

هكذا صاح «سليم أفندى» منادياً فى عظمة ، ثم وضع بحركة متشدة متكلفة الوقار «لى الشيشة» فوق الطاولة ، وجعل يفتل شاربه العسكرى المدهون بمعجون «الكوزماتيك» ، متوخياً فى حركاته وسكناته الظهور بمظهر الشخص المهم ، ذى «الحيشة» والاعتبار ، وهو بين آن وآخر يرسل نظرات خفية إلى شرفة منزل «الدكتور حلمى» ، وهى شرفة خشبية من النوع القديم ، مقفلة ذات نوافذ كنوافذ المشربيات التى ترى بيوت الوقف فى شارع الخليج ! ..

وفطن «سليم أفندى» إلى أنه نادى «الحاج شحاته» فلم يلب النداء ، فأدار فى الحال رأسه العارى المعطر بأنواع الأطايب ، ونظر إلى داخل القهوة ! .
كان الوقت ضحى ، والشمس قد اشتد وهجها ، غير أن «سليم» الجالس على

الرصيف خارج القهوة في مكانه اليومي المعتاد ، لم يكن ليعبأ بحرارة الشمس !... يدل على ذلك طربوشه المخلوع الموضوع على كرسى بجواره . . . ولو أنه في كل لحظة كان يخرج منديله الحريري « الرخيص » من كم سترته ليجفف جبينه في أناقة متصنعة وفي حيطة واحتراس ، حتى لا يهدم المنديل ترتيب شعره ، وحتى لا يمس أطراف شاربه المدببة .

صاح « اليوزباشى سليم أفندى » مرة أخرى مادياً :

- يا « معلم شحاته » :

ولكن « المعلم شحاته » لم يسمع شيئاً على ما يظهر ، فقد كانت الغوغاء والجلبة داخل القهوة تصم الآذان ، وكان كل نداء يضيع بين قهقهة الزبائن وسعالهم وبصقهم ونفهم ، وزبائن « المعلم شحاته » ليسوا من طراز « سليم أفندى » ، لا من حيث المركز والمقام فقط ، بل من حيث المزاج والعواطف ، ومن حيث الظروف أيضاً !...

فإذا كان « سليم أفندى » يجلس منفرداً منعزلاً خارج القهوة مشتغلاً بالعواطف والأحلام الجميلة ، فإن باقى الزبائن داخل القهوة مشتغلون بالصخب ، ويكادون يهدمون عليهم المكان ، ذلك شأنهم في كل يوم ، زبائن « الحاج شحاته » هؤلاء ؟... كلهم متعارفون ، وكلهم يختلفون إلى هذه القهوة الصغيرة في عين الميعاد ، كى يؤدوا فريضة لابد لهم منها ، فريضة الضحك ، وكأن هؤلاء الناس لا صناعة لهم غير الضحك ، وأنهم لم يخلقوا لغيره : فهم يقضون حياتهم كلها - على ما يبدو - في القهقهة بين أنفاس التعميرة والقهوة السادة . وهم دائماً في مجلسهم المعتاد ملتفون حول واحد منهم ، يظهر عليه الامتياز عليهم ، والتفوق والنبوغ في مضمار النكت والمزاح ، فهم دائبوا النظر إليه ، حتى إذا ما فاه بكلمة . هذا المهرج الأعظم ، انقلبوا جميعاً ضاحكين مختنقين من الصخب والضحك .

سواء أكان لما فاه به معنى أم لم يكن ، كأنما هم يجدون في مجرد الضحك والصخب لذة حسية ، ويمر «المعلم شحاته» وصبياننا هنا وهناك بينهم حاملين الطلبات ، وهم يضحكون ولا يدرون أحياناً لماذا يضحكون ، كأنما قد سرت إليهم العدوى ، أو أنهم يقصدون زيادة التشويش والتهيض وإحماء الوطيس ، فما تمر دقيقة حتى يصفق «المعلم شحاته» براحتيه ، ويصبح في الجميع صيحة لا يمر لها . كأنما يود أن يبلغ الضجيج والانشراح أقصى قوته :

- وحدوه !.. الى يصل على النى يكسب !

ولا يغطى صوته إلا نداء زبون :

- واحد زبيب يا جدع !..

أو صدى وقع الزرد على الطاولة بقوة وعنق ، في أحد أركان المكان :

- درجى !.. شيش جهار !..

ولكن الصوت الأعلى دائماً للمهرج الأعظم وزمرته المحدثه به كأنه معبود وسط عباد مؤمنين .. وهو يقول فيهم ويأمر وينهى :

- اسمع يا واد انت، وهو !..

فتعلو الأصوات :

- سمع .. هس !..

فيتكلم مازحاً الهزل بالغناء ، خالطاً الكلام العادى بالمواويل : فبينما هو يتحدث من حواليه من المقربين همساً عن ملاحظة عنت له أو عن شيء خاص ، إذا هو «فجأة» يرفع عقيرته بغير سابق إنذار :

- سبع سواقى بتملا لي طفوا لي نار !..

فيجيب الجميع :

- الله !..

- سبع سواقى بتملا لم ..
وهنا مر «المعلم شحاته» حاملاً طلباً ، فقطع المغنى مواله ، والتفت إلى
أعوانه ، وقال بصوت مسموع :
- سبع سواقى بتملا لم غسلت وش «المعلم شحاته» !..
فضحك الجميع على نغم الموال :
- ها .. ها .. هاو !..
وظلوا يضحكون حتى جفت حلوقهم ، وحتى أسكتهم صاحب الكلام . ولم
يستأ «المعلم شحاته» بل ضحك معهم ، ثم نظر إلى المهرج الأعظم نظرة عتاب
و «عشم» وقال وهو يستأنف سيره بالطلب :
- طيب ... طيب يا «حاج حسن» !..
وسمع «المعلم شحاته» صوتاً يناديه خارج القهوة ، فصاح :
- حاضر !.. حاضر !..
ثم مشى مسرعاً ، فاصطدم بكرسى ، وسقط الطلب على رأس زبون ، فإلحى
يجمع بقايا الكوب من الأرض وهو يقول :
- صلى على النبي تكسب !..
وكأنه غير عاين بالزبون الذى سال على وجهه وقفطانه ما كان بالكوب !..
وجعل الزبون يحفف وجهه بطرف قفطانه ، ويقول متذمراً :
- أكسب إيه ؟.. مش تحاسب شوية !..
فرفع «المعلم شحاته» رأسه إليه ، قائلاً :
- صلى على «أبوفاطمة» يا جدع انت .. واللى خلقتك دا زبيب !..
من يطول يدهن وشه بزيب ؟.. دا أحسن من مية القسيس يا جدع انت !..
فضحك الجميع ، وطفقوا يضحكون معاً ذلك الضحك الطويل الذى

لا ينتهى ، كأنما هم مجاذيب ! ..

وفى الحقيقة من يدري إن كانوا هم كذلك ، أو أنهم فقط قوم وجدوا النعيم فى الضحك جماعة ! ..

نفد صبر «سليم» ، أو الأصح أنه تصنع نفاذ الصبر، فأتى بحركة غضب ناظرًا بطرف عينه إلى شرفة «الدكتور حلمى» ، وصفق يديه الكبيرتين تصفيقًا كالرعد ، وصاح :

- يا «معلم شحاته» ! .. خبر إيه يا «معلم شحاته» ! ..

ومرت بضع ثوان ، ثم ظهر صاحب القهوة خارجًا منها يقول :

- حاضر ! ..

وما كاد يتبين «المعلم شحاته» «سليم أفندى» حتى هرع إليه :

- سعادة البك ! .. محسوبك ! ..

قال ذلك ، ووقف باحترام أمام زبونه النظيف المستديم ، وكأن «سليم» أعجبه هذه الوقفة الخاضعة ، فلم يأمره فى الحال بما يريد ، بل تركه يقف ، وأخذ يجمع بهذا الاحترام وهو يقتل شاربيه ، غير غافل عن أن يرسل نظراته الخفية إلى الشرفة المعهودة !

وأخيرًا قال فى لهجة متئدة وقور ذات جلال ، وهو يرمى إلى الشيشة فى تناقل الشخص ذى المقام :

- ولعة ! .. بسرعة ! ..

واختلس نظرة أخرى إلى الشرفة ، ثم قال للقهوجى أمرًا :

- إنت لسه واقف ! .. قلت لك بسرعة ! ..

فوضع «المعلم شحاته» يده على رأسه المعجمة باللاسة وقال :

- يا سلام يا بيه ! .. أوامر سعادتك على راسى دى ! ..

وأراد أن يذهب كي يأتي بالطلب ، ولكن «سليم أفندى» استوقفه قائلاً :
وعينه للشرفة :

- انت مش عارف أنا مين يا «معلم شحاته» ؟.. ما يفركش إني لابس ملكى !..

قال ذلك بصوت مملوء عظمة ، فأسرع «المعلم شحاته» قائلاً :
- عارف !.. عارف !.. أهل الحسب والنسب والكرامة ، اللهم ريد وبارك !..

ثم مشى نحو باب القهوة ، وهو ينادى صائحاً :
- ولعة للشيشة بره !..

ودخل القهوجى ، وعاد «سليم» إلى الشيشة ، فأخذها ووضع طرفها في فمه ،
ثم رفع رأسه وأرسل الدخان في الفضاء ونظر بملء عينيه هذه المرة إلى شرفة منزل
«الدكتور حلمى» ، وثبت نظراته ، ولكنه ما لبث أن خفض بصره يائساً . . إنه لم
يلمح ظل إنسان فيها : لا رجل ولا امرأة !..

سئم «سليم» أخيراً ، وأخذ يتمتم بألفاظ الضيق والاستياء ، وأخذ نوع من
التعب فجعل يتشاءب ، وله في ذلك حق ، فقد مضى عليه نحو ثلاث ساعات ،
وهو مرهون في مكانه بالقهوة ، يتحرك بجسمه الضخم ، كأنه قنطار من القطن ،
فكم من مرة نظر إلى الشرفة عبثاً ، وكم من مرة صفق يديه كالرعد للمعلم شحاته
وصبيانته ، صائحاً بها في لهجة ، يحرص دائماً أن تكون آمرة ناهية كلهجة
المأمور !.. ولم يختص صاحب القهوة وغلمانته فقط بهذا الأمر والنهى ، بل إنه لم
يترك مساح أحذية يمر بالشارع منذ ثلاث ساعات دون أن يناديه في سلطة صائحاً :
- يا ولد . . تعال نفص الجزمة !..

ويمد له قدمه قائلاً :

- نفض كويس! .. انت مش عارف أنا مين؟!
ولم يدع بائع جرائد يقع عليه نظره ، دون أن يقول :
- اسمع يا ولد! .. معاك بورص؟! .. والا هات أهرام ، علشان أقرأ أخبار
الترقيات والتنقلات! ..

ولا يرى بائعاً متجولاً حتى يستوقفه :
- تعال يا جدد انت وريني حمالات شغل ألمانيا .. لكن لا .. لا .. لا ..!
دا شغل نصب .. أنا لا ألبس إلا من عند «سمعان»! .. روح يا جدد!
والغرض أن يتكلم ويرفع صوته مدوياً ، وينظر بين الفترة والفترة إلى
الشرفة! ..!

ولكن مع الأسف ، كل هذه الأساليب ما كانت لتسرعى انتباه أحد ، اللهم
سوى زبون كان جالساً خلف «سليم أفندى» تماماً ، ولعله جاء دون أن يشعر به ..
ويظهر أن هذا الزبون ما كانت تفوته حركة من حركات «سليم» ، بل إنه -
على ما يبدو من اهتمامه وابتسامه المكتوم - كان يسر ويلتذ ويضحك في نفسه لما
يرى ، كأنما هو يشاهد قصة مسلية ، لم يكن هذا الزبون الشاهد سوى «مصطفى
بك» ، الجار القاطن بالدور الأسفل لدور «سليم» وشركائه! .. ومع ذلك لو أن
«سليم» أخطأ النظر مرة واحدة ، وسدد عينيه إلى المنزل الآخر الملاصق لمنزل
الدكتور - إلى المنزل رقم ٣٥ : أى منزل «الشعب» - للمح في إحدى نوافذه
شبح امرأة ، تلقى نظراتها القانطة هي الأخرى نحو القهوة منذ عشرين دقيقة ،
ولاستطاع كذلك أن يسمع صوت الجلبة والضوضاء التي ما فتئت تحدثها تلك المرأة
في نافذتها ، بحجة وضع القلل الفخار ، ذات الأغطية النحاسية! ..
لم ير «سليم» شيئاً من هذا! .. ولعل «مصطفى بك» لم يلمح هو الآخر شيئاً .
فإن اشتغاله بمشاهدة «سليم» وحركاته وأحواله ، وحرصه على تلك المشاهدة

والملاحظة . منعه من النظر إلى النافذة المذكورة وما يجري فيها ! ..
اشتد الحر ووهج الشمس مما اضطر «سليم» إلى لبس طربوشه ، وألقى نظرة
أخيرة على الشرفة ، ثم أخرج ساعته وطلعها ، فإذا هي لم تتجاوز الحادية عشرة .
وأفراد «الشعب» لا يعودون لتناول الغداء عادة قبل الواحدة بعد الظهر ، فإذا
يفعل بالوقت ! .. أیظل جالساً أم ينصرف ! .. وإذا انصرف فإلى أين ؟ .. تردد
وتحير ! ..

ومر بخاطره كالبرق خيال «قهوة الجندي» يوم أن كانت محله المختار ، وتذكر
تلك الفاتنات الإفريقيات اللاتي كن يترددن على الطابق الأعلى ، وكيف أنه كان -
على حد زعمه وتصوره - محبوباً بين هاته الطبء النافرة ، يتهاقن عليه وينظرن
بإعجاب إلى شواربه المفتولة «الزهار» ، ولكن ، وأسفاه ! .. لعن الله القلب
المصاب الذي حمله على المجيء إلى «قهوة شحاته» الحقيبة ، يمكث فيها طول
النهار ، ينظر بعيون مرتفعة إلى السماء ، كأنه عابد وثني لشرفة لا روح فيها ! ..
تثاءب مرة أخرى ، ثم مد يده في حركة مترامية ، وتناول جريدة على
الطاولة ، وحاول القراءة ، غير أن إحدى عينيه كانت دائماً خارج الصحيفة .
تنظر في كل جهة ، وتبدو في محجرها قلقة ، كبلية في فنجان ، وتستقر أخيراً على
الشرفة المعهودة ! ..

مرت لحظة وهو على تلك الحال ، وأخذ ينظر أمامه في انتباه ، ذلك أنه رأى
«مبروك» الخادم يخرج من المنزل ، حاملاً تحت إبطه «بقجة» صغيرة ، ولكن
ما استرعى انتباهه واهتمامه أن «مبروك» يلبس قفطان الطلعة ، ثوبه النظيف الوحيد
الذي يدخره لأيام الأعياد والمواسم والمولد ، ثم شيء آخر أغرب وأهم : أن
«مبروك» يتوجه بكل هذا إلى منزل «الدكتور حلمي» ! ..

والواقع أن «مبروك» بعد أن ظهر بالباب ، وألقى على الشارع نظرة شاملة ،

أدار وجهه وخطا بضع خطوات نحو المنزل المجاور المحبوب ، وهو يتمم مغنياً :
- « وانا مالى . . ما هنى إلى قالت لى » .

عندئذ نهض « سليم » نصف نهوض ، وصاح :

- يا مبروك !!! ..

فالتفت إليه الخادم وابتسم ، ولكنه لم يقف ولم يلفظ كلمة ، بل استمر يغنى :
- « روح اسكر ، وتعال ع الهلى ! . »

فقام « سليم » على قدميه . وجعل يصيح ، ويشير إشارات قوية :

- هس ! .. اسمع أما أقول لك يا « مبروك » ! .. اسمع أما أقول لك . . كلمة

واحدة وروح ! .. .

فلم يرد عليه « مبروك » بل وقف ونظر إليه وهو يغنى ، ثم أدار له ظهره ومضى ،
وصار يمشى كأنه يرقص ، حتى بلغ باب منزل « الدكتور » ، فوقف على عتبة
والتفت إلى « سليم » ، وغمز له بطرف عينه ولعب حاجبه ، ثم دخل تَوّاً
فزجر « سليم » ، ودمدم بين أسنانه :

- أما حيوان صحيح ! ..

ولم يفت « مصطفى بك » الجالس خلف « سليم » شىء من كل ذلك ، فابتسم ،
ومضت عشر دقائق ، وإذا امرأة ملتفة في إزار أسود ، قد ظهرت على عتبة المنزل
رقم ٣٥ : أى منزل « سليم » ، ووقفت هذه المرأة لحظة ساكنة جامدة ، تنظر إلى
القهوة نظرات مسددة طويلة ، من عينين تبرقان على جانبي قصبة البرقع
النحاسية ، ثم في حركة فجائية تدل على السأم والغضب ، أدارت ظهرها للقهوة ،
ومشت في شارع « سلامة » متجهة إلى ميدان السيدة زينب ! ..

ما كاد يراها « سليم » حتى نهض ناسياً جرائده وعصاه فوق الطاولة والكراسى ،
وأسرع في أثرها فلحق بها بعد ثلاث خطوات من خطاه الواسعة ، وهى تسير أمامه

بجسمها المهتز المترنح ، في تودة وتمهل ، كأنها الحمل .
قتل «سليم» شاريه بسرعة ، وتقدم مقرباً منها حتى حازاها فتحنح وقال
هامساً :

- يا سلام على كده !.. يا قشطة بلدى !.. خدامك يا هانم .. عربية والا
أوتومبيل ؟..

فعرفت صوته في الحال ، فوقفت ، والتفتت إليه ، وقالت في شيء من الحزن
ونخبة الأمل :

- هو انت بسلامتك ؟!..

- «زنوبة» ؟!..

فابتسمت تحت البرقع في كآبة .. وبغير أن تعبا بانتظار جوابه أخذت تحتلس
نظرات قلقة ، إلى قهوة شحاته خلفها ، كأنما تبحث عن شيء عن شخص !..
وأحس «سليم» الحيرة لهذا الموقف ، فقال مرتبكاً وهو يحاول إخفاء ذلك
بالضحك :

- ها .. ها .. الله يجازيك !.. أنا كنت فاكراً .. نهايته بقا .. إنت رايحة
فين ؟..

ف قالت «زنوبة» وهي شاردة الفكر ، غائبة الذهن :

- أنا ... ؟!

وكأنما تذكر «سليم» عندئذ سؤالاً هاماً فأسرع يقول :

- على فكرة .. الولد «مبزوك» دخل دلوقت بيت «الدكتور» !.. وانتظر
منها إجابة أو تفسيراً . ولكنها ظلت صامته ، ثم قالت أخيراً وهي ساهمة ، وعيناها
تفتشان بين مقاعد القهوة في آخر الشارع :

- مين ؟..

فنظر إليها ملياً :

- مين ازای ؟ .. بقول لك «ميروك» ! ..

فعادت إلى نفسها ، والتفتت إليه وقالت :

- ميروك ؟ .. ماله ؟ .. ما هو راح في مشوار

- مشوار ... ؟!

- آه .. راح يرجع فستان «سنية جلمى» ، اللى كنت قاعدة أفصل

عليه ! ..

فاقتنع «سليم» وسكت قليلاً ، ثم عاد يقول بصوت غريب :

- ومشوار زى ده خطوتين اثنين ، يلبس له الحيوان ده قفطان التشريفة

بتاعه ؟ ! ..

فأجابت «زنوبة» بعدم اكتراث :

- هو دائماً كده نهار ما يروح هناك ! ..

فحملق فيها «سليم» :

- عجيبة .. بقا هو دائماً كدة نهار ما يروح هناك . ! ؟

فقالت «زنوبة» وهى لاهية :

- له حق .. ما يحبش يروح للناس وسخ ! ..

فدمدم «سليم» فى غير تصديق :

- صحيح .. فى محله .. نهايته .. إنت رايحه فىن ؟ ..

فترددت «زنوبة» ، ونظرت إليه ، وارتبكت قليلاً ، ثم قالت :

- أنا ؟ .. أنا عايزه أروح عند .. «زهرة» الحياطة .

فسألها «سليم» :

- هنا فى البغالة ؟ ! ..

فأجابت بسرعة :

- آه . . .

فأتى «سليم» بحركة لينصرف ، وقال وهو يتعد عنها :

- طيب بقا . . أما ارجع أنا . . وابقى سلمى لى على «زهرة» إن كانت حلوة

وتفصيلها حلو !..

ثم استدار ، ومشى عائداً إلى مكانه بالقهوة .

لبثت «زنوبة» لحظة جامدة ، وكأنها مترددة ، وكأن نفسها فريسة لشيء خفى ، وجعلت تفكر كما يتاح لمثلها ولمن له عقليتها أن يفكر . ولم تدر ماذا تصنع . فألقت نظرة أخرى على القهوة ، ثم أرجعت بصرها خائبة الأمل ، وسارت ببطء متجهة إلى ميدان السيدة زينب ، وما أن وصلت إلى الجامع ، حتى وقفت وأرسلت عينيها من خلال قضبان نافذة الضريح ، وحدقت في مقام بنت بنت رسول الله ذى النقوش الفخمة ، ثم طففت ترتل في سرها وفي حزن ، سورة الفاتحة للسيدة الطاهرة . . وميدان «السيدة زينب» محطة رئيسية لمركبات «أمنيوس سوارس» والمار به لا يلبث أن يخترق أذنيه من حين لآخر صوت العامل أو السائق يصيح :

- يالله «الموسكى» !.. «السيدة نفيسة» . . «الموسكى» . . «موسكى» . .

«موسكى» !..

وكانت «زنوبة» أول من نبه هذا الصوت ، ووجهت كلمة «الموسكى» فكرها إلى شيء في رأسها ، فترددت لحظة ، ثم فجأة استقر عزمها فشت بقوة إلى مركز «الأومنيوس» ، وصعدت مسرعة إلى أول عربة مهيئة للسير .

مرت نصف ساعة و«سوارس» تخرج وتدخل في شوارع وحارات عتيقة ، محترقة الأحياء القديمة لمدينة القاهرة ، حتى وصلت أخيراً إلى الموسكى ، فنزل من

الركاب من نزل واشترأت رقاب الباقي في العربة إلى الخارج ، ينظرون على جانبي الطريق إلى المتاجر والدكاكين التي لا عدد لها ، وقد عرضت بضائعها التي تبهر الأنظار من أقمشة من الحرير والقطيفة ، مزركشة بالقصب اللامع و «الترتر» البراق ، ومن مصوغات ذهبية حقيقية وقشر سمكة ، ومن أحذية وشباشب «بكعب» و «زحافى» على آخر طراز . ومن خردوات ودنتلات وبياضات لزوم البيت ، وأوان نحاسية وأخرى من الصينى ، وملاعق ومغارف خشبية ومعدنية ، وبالاختصار كل شىء موجود في هذه السوق المشهورة .

وكان الزحام شديداً كالمعتاد و «سوارس» تلقى صعوبة في شق طريقها بين أمواج الناس المجتمعين كالنمل ، في شارع «الموسكى» الضيق ، يعلو صياحهم ، وتشتد حركتهم وضجيجهم ، كلهم تجار وباعة ومشتررون ومتفرجون ، فالتجار والباعة يصيحون منادين على بضائعهم متنازعين الزبائن ، بخالب أقوالهم ، ورخص أثمانهم ، وحلفهم وقسمهم بالشرف والإيمان على جودة الصنف وعلى أنها فرصة حقيقية و «أوكازيون» على ذمة «الحاجة» ! ..

والمشتررون - نساءً ورجالاً - يشاهدون ويجادلون ويمارسون ، متناولين الأقمشة بين أيديهم يفركونها ويفحصون متانتها في عنف ، ثم يساومون ويناقشون ، فتعلو الأصوات ، ويكثر القسم ، ويشتد الشد والجذب ، ويسيل العرق على الجباه والوجوه ، ويضاف على هذا الهرج والمرج صوت صناعات بائع العرقسوس يزاحم الناس بقدرته الحمراء على بطنه ، وإبريقه النحاسى في يده ، ولوح الثلج المركب فوق القدرة لا يبرد شيئاً ولا يصل إلى الشراب وإنما وظيفته مجرد الإعلان : «حاسب على أسنانك ! .. أنا يباع الشرابات .. ماليش دعوى بسنانك ! ..» ثم يدق دقة بصنوجه أو يملاً كوباً لزبون ، ثم يصيح في لهجة أخرى : «الصبر جميل ! .. فقر بلا دين هو الغنى الكامل ! .. سنانك حاسب ! ..» .

ظل ركاب «سوارس» يشاهدون هذا كله من نوافذ المركبة ، إلا «زنوبة» فإنها وحدها لبثت جامدة ساكنة ، لا تعباً في هذا اليوم بالموسكى وما فيه ، ولم تتحرك ولم تصح من تفكيرها وما يشغل بالها إلا عندما حان محل نزولها !.. وكان عند سيدنا الحسين ، حيث وقفت «الأمنيوس» ، فنزلت «زنوبة» وكأنما كانت على علم تام بالجهة التي تقصدها ، فإنها ما كادت تطأ الأرض حتى جعلت تسير في هذا الحى من شارع إلى آخر ، ومن حارة إلى حارة ، لا تلوى على شيء ، ولا تضع ثانية واحدة !..

في قلب هذا الحى .. عطفة سد صغيرة مظلمة ، ولا يمكن لغريب عن الناحية أن يهتدى إليها بمجرد المصادفة . إلى هذه العطفة كانت زنوبة تسير . وبلغتها بعد مسير ربع ساعة ، ووقفت بباب منزل هو الأخير من الجهة المسدودة !..

ترددت «زنوبة» قليلاً ثم طرقت الباب برفق ، ومرت لحظة ثم فتح الباب ، وظهرت خلفه امرأة عجوز ، وجعلت تنظر إلى «زنوبة» في تقطيب نظرة المتسائل ، فقالت لها «زنوبة» في شيء من الخجل :

— جايه للشيخ «سمحان» !..

فأفسحت لها العجوز طريقاً ، وأجابتها في خشونة ..

— أدخلى من هنا !..

دخلت «زنوبة» وأغلقت العجوز الباب وراءها ، ثم قادتها إلى حجرة واسعة قليلة الأثاث وأشارت إلى شلّة على الأرض خالية بجوار امرأة ترضع طفلها ، ثم قالت لزنوبة :

— اقعدى استريحى لمّا ييجى دورك .

وانصرفت من باب في صدر المكان .

جلست «زنوبة» على الشلثة وأخذت تجيل النظر فيما حولها ، فرأت نسوة جالسات على الأرض مثلها ينتظرن أيضاً نوبتهن وكن كلهن مجتمعات ، ووجوههن إلى باب الصدر ، وقد لبثن صامتات يحدهن بعيونهن فى ذلك الباب . كما لو أنه باب الله ! .. وكان يرتسم على ملامح هاته النسوة معنى واحد ، حتى ليخيل للرأى أن فكرة واحدة تجول فى رؤوسهن كلهن ، وتوحدهن جميعاً كأنهن فى صلاة الجمعة حيث تنفصل النفوس فى لحظة من أجسامها المختلفة ، وتنسى كل روح حياتها الخاصة ، لتجتمع كلها وتذوب جميعها وتنصب فى شىء واحد : «المحراب» ونسيت «زنوبة» نفسها لحظة تحت تأثير ذلك الشعور الذى كان يخضع له باقى النساء ، ولبثت جامدة صامته وقتاً ، تنظر مثلهن إلى باب الصدر ! .. وأخيراً التفتت فى هدوء ولطف إلى جارتها ، المرأة ذات الطفل ، وهمست فى أذنها سائلة :

- إنت جاية للشيخ يا ادلعدى ! ..

فنظرت إليها المرأة وأجابت :

- أبوه يا ختى ! ..

ثم قدمت لطفلها ثدياً كضرع البقرة ، وأضافت وهى تشير إليه برأسها :

- علشان الولد بعيد عنك ! ..

فاقتربت «زنوبة» بشلتها من المرأة ، ثم مالت نحو الطفل فى رفق وقالت :

- اسم الله عليه . . ماله ؟ ..

فرفعت المرأة غطاءً أزرق ، كان يغطى وجه ابنها الصغير ، ثم أجابت :

- عينيه ! .. زينا مايوريك . . شوفى ! ..

ألقت «زنوبة» نظرة على عيني الطفل التى كاد يأكلها الرمد ، قالت :

- مش رحت به للحكيم ؟ ..

فرفعت المرأة رأسها ، والتفتت إلى «زنوبة» التفاتة المحتج ، وقالت بصوت المعرفة والثقة :

- حكيم ؟! .. هم ياخني الحكماء يعرفوا حاجة ؟! .. دا أنا ماخليت شيء إلا تجربته . . ياما وصفوا لنا ياخني ! . ربنا هو العالم . . فيه بقا أكثر ولا أقوى من العسل الأسود ، وكحل البنت ، والششم المغربي ، والدود العلق . . لحد - اسم الله على مقامك - لبعخة سبلة الحمار السخنة . . وكل ده لا نفع ولا شفع . . تقولى إيه . .

فسكتت «زنوبة» لحظة ، ثم سألتها في بساطة :

- والشيخ «سمحان» يعرف في العنين ؟!

فصممت المرأة بفمها أسفاً لجهل «زنوبة» ، وقالت وهي تهز رأسها المغطاة بالملاء السوداء :

- يعرف ؟! .. بتسألني يعرف والا ما يعرفش ؟! .. دانت باين عليك ياخني ما سمعتيش به . . ياندامة ! .. بقا اللي ذلك على «الشيخ سمحان الأسيوطي» ما قال لكيش على كراماته ؟!

فقلت «زنوبة» في أدب :

- قالوا لي كثير . . لكن أنا لسه ما تجربتش ! ..

فقاطعتها المرأة ، واندفعت تقول :

- لا يا أنخي دا مجرب . . فيه أكثر مني أنا . . قبل ما أحبل في الولد ده ، كنت بعيد عنك ما باحبلش ، وياما عملت علشان الحبل . . يادهوتي على اللي جرى لي . . الراجل جوزي نفسه في الخلف ، ويصبح وبيات يقول لي : ياولية يا تحبلي يا أروح اتجوز عليك ، وأجيب لك ضرة ، قولي لي بقا يا أنخي أعمل إيه ؟! .. الرب هو العالم ، لا خليت طب ولا دوا ، ولا سحر ولا عمل . . كله

وحياتك ما فاد وعاد !.. ولا يوم من أيام جارتى «أم حسنين» إلهى بمسيتها بالخير .
قالت لى قومي ياختى روحى لواحد اسمه الشيخ «سمحان» ورا «سيدنا الحسين» ،
الناس بتحكى لى عنه وتقول . . والله وحياتك ما كدبت خير . . تعرفى مسافة
ما كتب لى الحجاب ولبسته ، وفات شهر والشهر اللى هل ، حسيت ببطنى رقعت
بالزغروط . .

فسألها «زنوبة» تطلب التأكيد بلهجة استغراب ساذجة :

- جالك الحبل ؟!..

فأجابت المرأة على الفور :

- أمال يا اختى !.. الحبل عقبال أملتك !.. بعد الحجاب بشهر !.. عايزة

إيه بقا أكثر من ده !..!

وهنا فتح فجأة باب الصدر ، وظهرت بالعتبة المرأة العجوز ، وأشارت إلى

المرأة ذات الطفل قائلة بصوتها الجاف :

- يله قومي . . دورك إنت وابنتك .

فأنحنت المرأة على طفلها ونظرت إليه ، ثم التفتت إلى «زنوبة» وقالت :

- يا أختى الولد نعسان . . طول ليلة امبارح يا كبدى ما داق النوم . . إن

كنت مستعجلة ياختى قومي إنت بدالى !

وأخذت «زنوبة» فى اهتمام تتبعها بعيون تم عن صبر نافذ ، وقد مدت عنقها

ووجهت أذنيها هى الأخرى علها تسرق بضع كلمات !..

فنهضت «زنوبة» بسرعة ، وشكرت المرأة ودعت لها الله والنبي و«سيدنا

الحسين» ، كى يأخذوا بناصرها ويمنوا بالشفاء على ولدها ، ثم أسرعت إلى

الباب ، وتبعته العجوز . .

ما اجتازت «زنوبة» عتبة باب الصدر ، حتى وجدت نفسها فى حجرة

الشيخ ، وهى حجرة مربعة الشكل ، ضئيلة النور ، ليس بها من نوافذ إلا طاقة مشبكة بالحديد قرب السقف ، ولا من أثاث إلا يضع « شلت » على الأرض . حول نخوان صغير ، فوق سجادة عجمية عتيقة .

وفى وسط تلك الحجرة يقوم ضريح « الشيخ سمحان » ولم يكن ضريحاً بالمعنى المعروف ، وإنما شئء كالقفص محجوب عن الأنظار بغطاء أسود كثيف ، وعلى سطحه صف من شمعدان نحاسى قديم ، وله باب صغير كالكة ذو قضبان فى لون الذهب ! .

عند ذلك الباب الذهبى للضريح أو القفص ، كانت تجلس امرأة فى متوسط العمر ، سميئة ، ولكن فى وجهها بعض ملاحظة ، هذه كما يقولون امرأة الشيخ ، فهى وحدها التى تتصل به بواسطة هذا الباب الذهبى الصغير ، وهى التى تنقل كلامه الحقيقى إلى الزوار السائلين . . ولكن الشيخ نفسه ، لم يره أحد قط ، كيف ولماذا هو محبوس فى هذا القفص أو الضريح ؟ . . لا أحد يعلم . . ولعل أحداً ما تساءل على ذلك . . كل ما يعرفه الناس أن الشيخ « سمحان الأسيوطى » ذو قوة خفية وأسرار حقيقية ، وأنه على اتصال دائم مع « بسم الله الرحمن الرحيم » أهل تحت .

وقفت « زنوبة » جامدة تنظر إلى الضريح إلى أن أشارت لها « امرأة الشيخ » إشارة صامتة ، تدعوها إلى الاقتراب والجلوس على إحدى الشلت المجاورة لها ، فجلست « زنوبة » حيث أشار لها ، وعندئذ نظرت المرأة إليها فى تحديق ، ثم سألتها بصوت متزن خافت :

- شاورت نفسك ؟ . .

فسكتت « زنوبة » لحظة ، ثم أجابت فى تردد :

- أيوه - لكن بس . .

فقطبت المرأة جبينها الذى تكاد تخفيه «قطة» المنديل الكحلي ثم قالت :

- لكن بس إيه ؟؟..

فأجابت «زنوبة» فى خجل :

- جنيه !.. غالى !..

فرسّمت المرأة على شفتيها ابتسامة احتقار ، وقالت :

- غالى ؟!.. جنيه واحد غالى !.. علشان اللى فى بالك تنويه ؟!.. آمال

لو كنت قلت لك خمسة جنيه زى الست اللى لسه خارجة قبلك !..

فقلت «زنوبة» بصوت خافت :

- والنبي لو كنت غنية ماكنت أتأخر ؟

فقلت امرأة الشيخ فى رفق :

- صلى على النبي يا أختي . . إنت فاكرو الفلوس دى أنا طالباها لنفسى ؟!..

فاكرو دى حاجة رايحة تدخل جيوبنا . . ! أبداً وحياة راسك . . احنا مش

محتاجين . . بعد الشر . . يا سلام !.. الجنيه بتاعك يا أختي رايحين نشترى لك به

اسم الله عليك ، خروف أبيض من غير إشارة . . وندبحه على اسمك هنا على الباب

ده ، وندهن العتبة بدمه . . على الله ببركة الأسياد اللى سمعينا يفتح لك باب السعد

والهنا !..

فدق قلب «زنوبة» فجأة للكلمتين الأخيرتين ، وخفضت نظرها للحظة فى

حياء ، ثم عاد إليها الهدوء والسكينة ، فأخرجت منديلها من صدرها ، وفكت

عقدة فى طرفه وتناولت جنيهاً من بين نقود أخرى بالمنديل ، ووضعت على الخوان

الصغير بيد مرتجفة وهى تقول :

- بس خروف ؟!.. مفيش حجاب ولا حاجة ؟؟..

فأجابت امرأة الشيخ وهى ترمق الجنيه على الخوان بطرف عينا :

- آمال يا اختى آمال .. حجاب وبخور وتبييت أثر .. أنا عارفة بخورك
ما تخافيش : فسوخ وشبه وجتزاره وعنزروت وفرقارة ورمش عين الجان ! .. لازم
لك حجاب تلبسه دائماً ولا تقلعيه أبداً حاكم انت اسم الله سلطاني دقتك
نخيفة .. اصبرى كمان لما أسأل لك الشيخ ..

وقربت فمها من الكوة أوالباب الذهبي ، ونادت :

- يا «شيخ سمحان» ! ..

وعندئذ سمع صوت ضعيف ، كأنه جثة مقبورة في يوم الحشر ، ينبعث خافتاً
من أعماق الضريح المظلمة ، فالتفتت المرأة إلى «زنوبة» بسرعة وسألتها :

- قولى لى قوام اسمك واسم أبوك وجدك ؟ ..

فردت زنوبة على عجل :

- اسمى «زنوبة بنت رجب بن حمودة» ! ..

فعادت المرأة إلى باب الضريح ، وصاحت :

- يا «شيخ سمحان» ! .. اسمها «زنوبة بنت رجب بن حمودة» ..

وساد سكون هائل عميق دام لحظة ، ثم فجأة .. عاد ذلك الصوت الضعيف
البعيد غير الجلى ، وألصقت المرأة أذنها على الباب الذهبي ، وجعلت تنصت
بانتباه .

ولم تلبث المرأة أن فرغت وتركت باب الضريح ، وأقبلت على «زنوبة» تفضي
إليها بالنتيجة ! ..

- اسمعى ! .. الشيخ يقول عايز أثر من شعره ! .. بس على شرط يكون من
صحن الرأس عند مفرق الشعر ! ..

فقدمت «زنوبة» بصوت خافت فى خجل واضطراب :

- شعر مين ؟!..
- فنظرت إليها المرأة في خبث وقالت :
- شعر مين ؟!.. شعر اللي في بالك !..
- فدمدمت «زنوبة» مرددة وكأنما تقول لنفسها :
- أتر من شعره ؟!..
- فأضافت امرأة الشيخ مؤكدة :
- من صحن الرأس عند مفرق الشعر . . إياك تنسى . . إن كنت شاطرة .
- قولي للمزين اللي بيخلق له واغمزيه يحيب لك طلبك . اسمعي كمان ياختي . .
- الشيخ يقول لك كمان «قلب هدهد» يتيم !..
- فسألت زنوبة مستفسرة بصوت ساذج :
- قلب هدهد ؟!..
- فقالت المرأة مؤكدة :
- يتيم . . قلب هدهد يتيم . . إوعى تنسى .
- فسألها «زنوبة» :
- وبس خلاص ؟!..
- فأجابها امرأة الشيخ :
- هاتي دول الأول . . الحجاب المعمول من دول عمره ما يحيب . الشيخ
- قال من تحت . . وهو أعلم بالسركرامة ، كل من كان ، راجل والآ حرمة ،
- لبس دي الحجاب ، يصبح يلقي اللي في باله تحت رجليه !.. فاقتنعت «زنوبة» .
- وتورد وجهها !..

(عودة الروح ١٩٣٣)

الطفيلي والبخيل

جاء العصور «أشعب» يتسكع في الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام سستان من بساتين «الكندى» ، فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالساً ، تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلاً فيه لحم «سكباج» بارد وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أربع بيضات ، فاقرب منه ومرّ به مسلماً عليه ، فردّ «الكندى» السلام قائلاً :

هلمّ عافاك الله ! ..

وإذا «أشعب» أسرع من خطف البرق في صحن السماء ، قد انثنى راجعاً يريد أن يعدّي جدول الماء ، فصاح به «الكندى» وهو يأكل :
مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان ! ..
فوقف «أشعب» مأخوذاً . . فسأله «الكندى» :

تريد ماذا ؟ ..

فأجاب «أشعب» :

أتريد أن أتغدى ! ..

فحملق فيه «الكندى» وقال :

ولم ذلك ؟ .. وكيف طمعت في هذا ؟ .. ومن أباح لك مالى ؟ .

فقال «أشعب» :

أو لست قد دعوتنى ؟ ..

فأجاب «الكندى» :

ويلك ! .. لو ظننت أنك هكذا أحقق ما رددت عليك السلام . . ماذا كان

بيننا غير سلام ، وردّ سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام
بفعال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه ، وجعل «أشعب» ينظر إليه لحظة ، ثم قال

له :

لقد رأيتك تأكل وحدك ! ..

فبلغ «الكندى» ريقه ، ثم قال :

ليس علىّ في هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة . لأن

ذلك هو التكلّف ، وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع غيرى زيادة في

الأصل ، وإذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء ، فإن جليس السوء خير من

أكل السوء ، لأن كل أكل جليس ، وليس كل جليس أكلاً ! ..

فقال «أشعب» متخابثاً :

إنما أردت أن أؤاكلك ، لأسخيك ، وأننى عنك اسم البخل ! .. ؟

فأجاب «الكندى» وهو يلقي في حلقه زيتونة :

لا أعدمى الله هذا الاسم ، فإنه لا يقال : فلان بخيل إلا وهو ذو مال . فسلم
إلى المال ، وادعنى بأى اسم شئت !..
فقال «أشعب» :

ولا يقال أيضاً : فلان سخي إلا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم الحمد
والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والدم ، فأنت قد اخترت أحسهما
وأوضعهما .

فقال «الكندى» :

بينهما فرق !..

فقال «أشعب» :

ما هو ؟..

فأجاب «الكندى» :

في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه
حفظاً ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعاً ، والمال حقيقة ومنفعة وحيارته
قوة ، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف !.. وماذا ينفع الحمد إذا
جاع البطن ، وعرى الجلد ، وضباع العيال ، وشمث الحساد ؟!..

وظل يأكل ، و «أشعب» ينظر إليه ، حانقاً في دخيلة نفسه على هذا اللؤم .
الذى لا ينفع فيه حيلة . غير أنه تلطّف له ، ودنا منه قائلاً :

وما عليك لو جلست إليك ساعة أغنيك حتى تطرب ، وأضحكك حتى يزول
عنك هذا القطوب ؟..

فصاح «الكندى» :

لا أريد أن أطرب الساعة ، ولا أن أضحك ! .

— وما يمنعك من ذلك ؟..

- يمنعني منه أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا طرب
وضحك !..

فأسقط في يد «أشعب» ، ولم يدر أى مدخل إلى هذا الرجل ، وهو كلما فتح
له باباً أغلقه ولم يقنط «أشعب» مع ذلك ، وخطر له خاطر أعجبه ، فأسرع
يقول لصاحبه :

لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية ، وقبل دفع
الأجر ، وقضاء الحوائج ، والوفاء بالشرط ..

فأبرقت أسارير الرجل ، ووضع اللقمة من بده ، وقال :

وأين رأيت أن أدعوه .. متى ؟..

- الليلة إلى عشائك !..

- عشائي ؟ !..

وعاد إلى قطوبه ، فأراد «أشعب» أن يهون عليه الخطب ، فقال له :

لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف ، إنه يرضى بما حضر !

فأسرع «الكندى» يقول :

ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه أنه لا بد من أن يقع على شيء ..

فقال «أشعب» :

قطعة مالح ..

- قطعة مالح أليست هي شيئاً ؟..

- نكتفى بالشرب إذن على الريق ...

- لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس ..

- أنا أحضر النبيذ !..

فقال «الكندى» للفوز :

إذا صرت إلى إحضار النبيذ ، فأحضر أيضًا ما يصلح للنبيذ . .
فقال «أشعب» :

ليس بمنعني والله من ذلك ، ومن إحضار النقل والريحان إلا أن أحسب أن
صاحب الدعوة ، وليس يجوز ذلك ، إلا أن يكون لك فيها أثر . .
ففكر «الكندى» لحظةً ، ثم صاح ، كمن وجد الفرح :
لقد انفتح لي باب لكم فيه صلاح ، وليس عليّ فيه فساد . .
والتفت إلى نخلة عالية ملساء ، كأنها ثعبان ، قائمة في طرف من أطراف البستان
وقال :

في هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وإن نحن وجدنا إنساناً
يصعدُها ، ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد «طباهجة» والآخر
«كردجا» فكان نعم العشاء ، فهل لك يا «أشعب» في صعود هذه النخلة ! . .
فنظر «أشعب» إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :
هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلا إذا كان اليوم آخر عمري ، وأردت من ذلك
دقّ عنتي ، اللهم أغني عنك ، وعن طعامك يا شيخ ! . .

وأراد أن ينصرف يائساً ، ولكنه فكر في أمر عشاءه ، وليس في المدينة الليلة
وليمة ولا عرس ، ينسلّ إليه ، فعاد ينظر إلى النخلة ، فرأى مرة أخرى أن علوها
الشاهق يملأ النفس رعباً ، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه إلا من طلب الموت .
فأخبر «الكندى» أن يعفيه . وأن يطلب في الجيران إنساناً يصعدُها . فسألوا
الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ، ودلّهم بعض الناس - آخر الأمر - على
أكار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه فلما جاء ونظر إلى النخلة
تردد هو أيضاً ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة .
فلما صار في أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر وسلمه إلى «الكندى» .

ووقف يتصبّب عرقاً في انتظار الأجر ، فأخرج «الكندى» «فلساً» ، وضعه في يد الأكار ، فنظر فيه ملياً ، ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعاً : «

«فلساً» بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى !.. لو كان أعطى درهما على الأقل ، إنه ذومال !..»

فالتفت إليهم «الكندى» صائحاً :

إننى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !.. وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى «أشعب» قائلاً :

الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا في طلب صاحبك الساكن الجديد .. فنظر أشعب إليه شزراً :

فرخ يمام واحد ، هو «الطباهج» و«الكرداج» وهو كل العشاء ؟!.. ففكر «الكندى» لحظةً ، ثم قال :

انتظر ، لا تبرح !..

وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظاً ، فترضاه وأغراه وذهب به ، وغبرا ملياً ، ثم عادا يحملان أرزاً بقشره ، وليس معهما شيء مما خلق الله إلا ذلك الأرز فلما صار «الكندى» إلى بستانه كلف الأكار أن يحشّه في مجشّة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلّفه «الكندى» أن يطحنه على ثوره وفي رحاه ، حتى فرغ من طحنه فكلّفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار ؛ لأنه به أكثر تزلًا ، ثم كلف الأكار أن يخبزه ، ثم طلب إلى «أشعب» وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له في الجدول الشصوص للسّمك . وأن يسكروا «الدرياجة» على صغار السمك كي لا تدخل في السواقى ، وأن يدخلوا أيديهم في حجرة الشلابى ، حتى يصيبوا من

السّمك شيئاً كَبَاباً ، على نار الحَبز ، تحت الطابِق ، فلا يَحْتَاح من الحطب إلى كثير . فما زال « أشعب » منذ ذلك العصر إلى الليل في كَدٍّ وجوع وانتظار إلى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت « الكندي » أن الإمامة التي كان قد بعث بها لتطبخ طباهجاً ، قد نصبت ، فصاح « الكندي » صيحة الظفر :

يا « أشعب » ! .. هلموا إلى عِشائِي وهنيئاً مريئاً لكم طعامي . فأحضر صاحبك إلى داري تجدوا الخوان قد نصب ، كأنه إيوان كسرى وعرش هرقل !
جری « أشعب » إلى صديق له من طرازه يدعى « بنان » فقصر عليه الأمر . وتوسّل إليه أن يأتي معه إلى دار « الكندي » فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ « أشعب » من وعده : فإذا انتهى العشاء ، وعاین الصديق الدار كان له أن يتعلّل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن عند « بنان » في تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضاً . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الحالية لوقته مع « أشعب » ! .. وسارا في الطريق فأوصاه « أشعب » أن يفهم « الكندي » أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط . .
فالتفت « بنان » إلى صاحبه قائلاً :

قد فهمت دفع الكراء ، وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ ..
فأجاب « أشعب » :

في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة . ونشوار العلوفة ، وألا يخرجوا عظمًا ، ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان . وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبل في بيته ! ..
أقبل الضيفان على دار « الكندي » فألفياه قد أعدّ الخوان ، وجلس في انتظارهما يتلمظ ، ويقول :

ومن البلية في الموائد ان يرى
قوم جوع في انتظار القادم
فقعد «أشعب» من الفور أمام الطعام ، وأجلس زميله جواره وهو يقول :
سواء علينا أقدموا أم تأخروا
نواى مع الطباخ ساعة . يغرف
وأشار إلى صاحبه «بنان» بعد أن غمزه بكوعه :
لقد انتظرت صاحبي هذا انتظار الآكل للشبع !..
فقال «الكندى» :
انتظرته إذن قليلاً ؟..
فأجاب «بنان» للفور :
نعم ، لقد انتظرني مقدار ما يأكل إنسان رغيفاً !..
وتناول الخبز . فقال «الكندى» :
لقد انتظرك إذن طويلاً ..

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ، ولم يجيباه بعد ذلك و «أشعب»
و «بنان» إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد منهما حظ في الطيبات ، فما جاءت
القصعة فيها الثريدة ، كهيئة الصومعة ، مكللة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ
«أشعب» الذى يستقبله ، ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدي صاحب الدار ،
ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله «بنان» وحاكاه .
فلما أن نظر «الكندى» إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ، والفرخ كله
بين يدي «أشعب» وزميله إلا قطعة جناح صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها قدماً
الضيف الجديد ، واحتسب بها في سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو يتميز
ويقول ، ليخفى غيظه الكظيم :

قالت الحكماء : «عليكم بشرب الماء على الغداء» ، فلو شرب الناس الماء على الطعام ما أثنموا ، وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء . وربما كان شعبان وهو لا يدري !..

فقال «بنان» :

شعبان !.. والله نحن إنما نسمع بالشع سماعاً من أفواه الناس !.. ثم مدّ يده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامساً :

- تمهل وتحشم ، ألا يفطن إلينا ويفر منا . . أنت لا تعفيه : لأن يطعن طاعن في الإسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني ؟..

فسحب «بنان» يده ، وهو يهمس في أذن «أشعب» :

أو يريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبي ؟!

ولحظهما «الكندى» وظنّ أنهما يتسارآن في أمر الخبز ويستصغران حجمه .

فأمسك برغيف ورطله في يده وقال :

يقولون إن خبزى صغير !.. فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !..

فبهت «بنان» ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا بالبواب قد فتح عليهم ، ودخل جار «الكندى» ، قرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض «الكندى» عليه الطعام ، فاستحيا «أشعب» من الرجل وهو جاره في السكن ، فما تمالك أن قال له :

سبحان الله !.. لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل !..

فتأدّب الرجل وقال حياءً :

قد والله فعلت !..

فأسرع «الكندى» يقول :

ما بعد القسم بالله شيء ! .

فكتف الرجل بذلك كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه في مكانه لا يريم . ولو مدَّ الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرَّك منصرفاً خجلاً ، فرقَّ له « أشعب » وقال له :
أين تريد ؟ .

فقال الرجل :

إلى منزلي أتوضأ . .

فقال له « أشعب » :

ولماذا لا تتوضأ هاهنا ؟ .. فإن الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ،
وليس من « الكندي » حشمة ، ومنزله منزل إخوانه .
فدخل الرجل فتوضأ ، « والكندي » ينفخ من الغيظ ، ولحظه « أشعب » فقال
له :

هون عليك . إنما كل بغيتي أن أسخيك . وأنفي عنك التبخيل . وسوء
الظن ! ..

فقال « الكندي » :

فهمنا أن تدعو الناس إلى غذائي لتسخيني ، ولكن لا أفهم أن تدعوهم
ليخروا عندي ! ..

وعاد الرجل فجلس عن كئيب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى « الكندي »
قائلاً :

جاءتني رقعتك اليوم ، وفيها أنك تزيد على أجر الدار خمستين : لأن ابن
عمي ومعه ابن له قد نزلا عليّ ضيفين ! ..

فأجاب « الكندي » على الفور :

نعم . إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك . وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة يحجر علينا الطمع في ليال كثيرة . . . فقال الرجل :

ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه . . . فقال « الكندي » :

إن دارك بثلاثين درهماً وأنتم ستة ، أى لكل رأس خمسة . فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين ! . . . فقال الساكن متعجباً :

وما يضرّك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال ؟ . . . إن ثقل مثولتهما علىّ أنا دونك . ما هو إذن عذرك لأعرفه ؟ . . . فترك « الكندي » الأكل ، واتجه إلى ساكنه قائلاً :

عذر واضح كالنهار ، والحصل التي تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المثونة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشى على ظهور السطوح ، والصعود على الدرج . فينقشر الجص وينكسر العتب ، وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال ، تهشمت الأبواب ، وتقلعت الرزّات ، فساكن الدار هو المتمتع بمرافقها ، وهو الذى يبلى جدتها ، ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وإنه ينسى أن المالك ما أسكن داره إلا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ، فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخراباً لا تصلحه إلا النفقة الموجهة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترساً إلا سرقه ، ولا سلماً إلا حملة ، وإذا أراد الدقّ فى الهاون ترك الصخرة المجمولة لذلك ، ودقّ على الأجذاع حيث جلس ، تهاوتاً وقسوةً وغشاً . . . هذا فضلاً عما يحدثه من الشغب مع الجيران ، والتعرض لهم واصطياد طيورهم .

وتعريضنا لشكايتهم . فإذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب بضعة دراهم لإصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب ...!

وسكت «الكندى» فجأة ، فقد حانت منه التفاتة إلى الضيفين . فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام ، وأمعناهما في محو أثر الخبز والسمنك . إلا «شبوطة» كان قد نجح في وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبرها ، ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظنّ عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطاييها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد «أشعب» عليها ، فلما رأى هذه اليد في السمكة رأى الموت الأحمر ، والطاعون الجارف ، وأيقن بالشرّ ، وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث «أشعب» حتى قبض على قفا «الشبوطة» ، فانتزع الجانبين جميعاً واكتسح ما على الوجهين ، فلما أكل «أشعب» جميع أطاييها وبقي «الكندى» في النظارة ، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى «أشعب» يفرى الفرى ، ويلتهم التهاماً صاح به : حسبك . . لا يقتلك الطعام ...!

فأجاب «أشعب» وفه ممثلي :

إذا كان الأجل موقوتاً ، فلأن أموت شبعاً أحبّ إلى من أن أموت جوعاً ! ..
وقنط «الكندى» من الأكل مع هذين الرجلين ، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن ، واتفق معه على الزيادة في الكراء كما طلب ، وشيعة إلى الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل ، «وبنان» يتجشأ ، ويقول :

لعن الله «القدرية» . . من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام .
وقد كان في اللوح المحفوظ أني سأكله ...!

فكظم «الكندى» غيظه ، وقال فى نفسه :

تعال غداً فإن وجدت شيئاً فالعن «القدريّة» والعن آباءهم وأمّهاتهم ! ..

وجلس الضيفان ، بعد أن غسلا أيديهما ، يتخلّلان من الطعام ، وهما على

خير ما يكون الإنسان راحة وهناءً . . . وجعل «الكندى» ينظر إلى خوانه منتهك

الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشواك ، كأنها جثث القتلى بعد المعركة ، فساورته

الهموم . وتحركت فيه غريزة البخل ، وشعر بالكرب والغمّ ، فما تمالك نفسه .

وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

أسألكما بالله الذى لا شىء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى ، أوقبل أن

تأكلوا طعامى ؟ ..

فقالا معاً :

ما نشكّ أنك حين كنت والطعام فى ملكك ، كنت أغنى وأيسر ! ..

فقال :

فأنا الساعة أقرب إلى الفقر ، أم تلك الساعة ؟ ..

قالا :

بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر . .

فلم يحتمل الكارثة ، وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب :

آه ! .. من ذا الذى يلومنى إذن على ترك دعوة قوم ، قريبنى من الفقر .

وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب ؟ ! ..

فرأى «أشعب» الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيدة .

فأسرع يقول له :

ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجنى الكثير ، ما هذا الطعام

القليل النفقة الخفيف المثونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد

كراء لدارك الخالية ؟ .. أما كنت تقول الساعة : إن الغرم بالغنم ؟ ! .. فأنت والله في آخر الأمر الغانم الرابع ! ..

فتفكر « الكندي » لحظةً وبدأ عليه الاقتناع . فاطمأن في الحال قلبه . وانفرجت أساريره ، وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح . . قال :
إذن فادع لي ! ..

فرفع « أشعب » يديه إلى السماء ، وقال :
من الله عليك بصحة الجسم ، وبسطة اليد ، وسعة الصدر ، وكثرة الأكل ونقاء المعدة . وأمتعتك بضرر طحون ، ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن والعافية ! .. هذه دعوة مغفول عنها ! ..

جعل « أشعب » و « بنان » يدلّان « الكندي » ويفكهانه ولم يشكّا أنه سيدعو إليهما تلك الليلة نبيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن « الكندي » جعل يتغافل ويتناوم ، فلمح له « أشعب » بما يصبو إليه قائلاً :

إن المجلس والله ليس فيه غناء ولا نبيذ . . فهو كالبيت الحرب ! .. فلم يسمع لكلامه صدى ، وطال تغافل « الكندي » فلم يجده « أشعب » بدءاً من التصريح ، فأقبل عليه يقول :

اجعلها مرة ليس لها أخت ، ودعوة لن تعود إلى مثلها ، واضحك واطرب ليلة في العمر بقليل من نبيذ ! ..

ولما بلغ منه ومنهما المجهود ، ورأى « الكندي » أنهما مقيمان مصرّان ، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب . ووضعها بين يدي « أشعب » وقال له :

الآن غنّ وأطربني والأمر لله ! ..
فانقيض « أشعب » و « بنان » على الكئوس . وشرب « بنان » شرب العطشان

الصاذى ، وأفرغ «أشعب» كأسه فى جوفه ، وهو يرفع عقيرته منشداً :
امدح الكأس ومن أبدعها واهج قوماً قتلوا بالعطش
إمّا الكأس ربيع باكر فإذا ما لم نذقها لم نعش
فطرب «الكندى» للصوت ، ولكنه قال كالمخاطب نفسه :
والله ما قتلوكم بالعطش ، ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشره . .
وملاً كأسه وقال :

غنّ أيها المغنى !..

فلاً «أشعب» كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقول اللائم اللاحى

واشرب على الورد من مسمولة الراح

كأساً إذا انحدرت فى حلق شاربها

أغناك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح «الكندى» من الطرب صيحة مدوية دهت الضيفين . وأفرغ فى حلقه
كأساً أخرى وهو يقول :

اسقنى حتى ترانى مسائلاً

وترى عمران دنى قد خرب

وسكر «الكندى» ، وأمعن «أشعب» فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الدنّ من لطف

وأستبيح دماً من غير مجروح

حتى انشيت ولى روحان فى جسدى

والدنّ مطرح . جسم بلا روح

فطرب «الكندى» ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ، فشقّ قميصه ، وقال

«لأشعب» :

افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى . . .

فنظر إليه «أشعب» دهشاً . . فصاح «الكندى» :

ويلك ، شقّ أيضاً أنت قميصك !..

فقال أشعب جزعاً :

— أصلحك الله !.. أتريد أن أشقّه وليس لى غيره !..

فقال «الكندى» : «شقّه وأنا أكسوك غداً» .

فأجاب «أشعب» : «فأنا إذن أشقّه غداً» .

فقال «الكندى» : «وأنا ماذا أصنع بشقّك غداً ؟» .

فقال «أشعب» : «وأنا ماذا أرجو من شقّه الساعة ؟» .

ولبثا فى ذلك وقتاً يتساومان ، و«بنان» ينظر إليهما ويعجب وأخيراً صاح فى

«الكندى» :

— ما كل هذا ؟.. إنى لم أسمع قط بإنسان يحاور وينظر فى الوقت الذى إنما

يشقّ فيه القميص من غلبة الطرب !.. إذا كنت قد طربت الآن حقاً ، فاكسه

الآن القميص !..

وهزّت «الكندى» نشوة الخمر وثخوة الوهم ، فى غفلة من غريزته النائمة .

فقام يتعثّر إلى قميص جديد عنده ، فأتى به وكساه «أشعب» . فلما صار القميص

على «أشعب» ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين

الفرص ، وأوهم «الكندى» أنه ذاهب لقضاء حاجة ، ثم مضى تَوّاً إلى منزله

بالقميص فجعله «برشكانا» لامرأته . .

ومضى من الليل أكثره وركب النوم «الكندى» و«بنان» ، وهما ما برحا فى

انتظار عودة المطرب . فانطرح «بنان» على الأرض جاعلاً فراشه البساط ومرفقته

يده ، ولم يكن في المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد «الكندى» إكرام ضيفه فاخذ
المخدة فرمى بها إلى «بنان» فأبأها وردّها عليه . وأبى «الكندى» ، وأبى هو . ولبثا
هكذا يتطارحان التأدّب ، ويتقارضان المجاملة في لسان متعلّم وجذع متمايل ، إلى
أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

سبحان الله !.. كيف يكون أن تتوسّد مرفقك ، وعندى فضل مخدة !..
فأذعن «بنان» وأخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يفرق
«بنان» في النوم ، لابس الفراش ورداءة الموضع . وظن «الكندى» أن الضيف قد
نام ، فجاء قليلاً قليلاً حتى سلّ المخدة من تحت رأسه . فلما رآه «بنان» قد مضى
بها ضحك وقال :

قد كنت عن هذا غنياً !.. فارتبك «الكندى» وقال :

«إنما جئت لأسوى رأسك» فقال «بنان» :

«إني لم أكلمك حتى وليت بالمخدة . . .»

فأجاب «الكندى» : «كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي ،
نسيت ما جئت له ، والنيبذ ، ما علمت والله . يذهب بالحفظ أجمع !..» .
وأراد «الكندى» أن يردّ عليه المخدة . فأبى «بنان» ، فألح وألح ، وعادت
المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد ، فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم الثقيل في
الهزيع الأخير من الليل . فانطرحا ، كأنهما حجران والمخدة عن كثر منهما
منطرحة منفردة وحيدة .

وطلع النهار وأحسّ «بنان» ضرب الشمس في وجهه ، فنهض ونظر حوله
مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى «الكندى» ممدداً يغطّ على مقربة منه ، فأسرع
إلى نعله فحمله في يديه ، وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ . . .
وعلا النهار . . . وأقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجر ، فصحا

«الكندى» ، وفرك عينيه وألقى نظرةً على المكان ، فهم منها كل شيء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحةً منكراً ووضع نعله في قدميه ، وانطلق إلى مسكن «أشعب» فدقّ عليه الباب ، فخرج له فقال له :
أين الساكن ؟..

- لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه . .

- وأين القميص ؟..

- إنك قد وهبته إياه . .

فقال «الكندى» فى رفق مصطنع :

أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا تجوز ؟.. وبعد فإنى أكره ألا يكون لى حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر . فرد على القميص حتى أهبه لك صاحباً عن طيب نفس . . فإنى لا أحب أن يذهب شيء من مالى باطلاً . .

فلم يتحرك «أشعب» لهذا القول ، وعلم «الكندى» أن مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هذه «الحجج» فأقبل عليه يقول متلطفاً :

يا «أشعب» ، إن الناس يمزحون ويلعبون ، ولا يؤاخذون بشيء فرد القميص عافاك الله !..

فقال «أشعب» مبتسماً :

«إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنى إلى الأرض حتى جئت به لامراتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقادير ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذ» . .

فقال «الكندى» على الفور :

نعم آخذه . . لأنه يصلح لامراتى كما يصلح لامراتك . . ومد ذراعه . فقال

« أشعب » :

« إنه عند الصباغ »

فقال « الكندي » :

« هاته » ! . . .

ليس أنا أسلمته إليه . .

فعلم « الكندي » أنه قد وقع . وأن لا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء .

فقال في زفرة حارة من كبد محروقة :

ياي وأمي . صدق رسول الله حيث يقول :

« جمع الشر كله في بيت وأغلق عليه . فكان مفتاحه : السكر ! . . » .

(أشعب أمير الطفيليين ١٩٣٨)

القهررس

صفحة

٥	حمارى ومنظرى
١٥	حمارى والنفاق
٢١	لقائى بحمارى
٣٣	موقف حرج
٤١	أريد هدم نفسى
٤٧	بيتنا الذى لم يتم
٥٧	فى المحكمة
٧٣	الطاجن وصل
٨٣	عوالم الفرخ
٩٩	الهدهد اليتيم
١٢١	الطفيلى والبخيل



تقدّم

خصم ٢٠٪ على كتب دار المعارف
١٠٪ على كتب الفيرعربية ومستوردة
٥٪ على الكتب الجامعية

لأصدقاء دار المعارف
مرحباً بك صديقاً لنا

تقدّم إلى أقرب مكتبة من مكتبات الدار :

- ارمك نموذج طلب الصداقة واستلم بطاقة الصديق
- إنفع مبلغ جنيه واحد
- عندما تصل مشترياً لك إلى ٢٥ جنيهاً سيرد إليك الجنيه
- تجمع بجمعيات الصداقة طالما تحمل بطاقة الصديق

مكتبات دار المعارف
منتشرة في المدن الكبرى

القاهرة ~ الإسكندرية ~ طنطا ~ شبين الكوم ~ الزقازيق ~ المنصورة
الاسماعيلية ~ العريش ~ أسيوط ~ سوهاج ~ قنا ~ أسوان

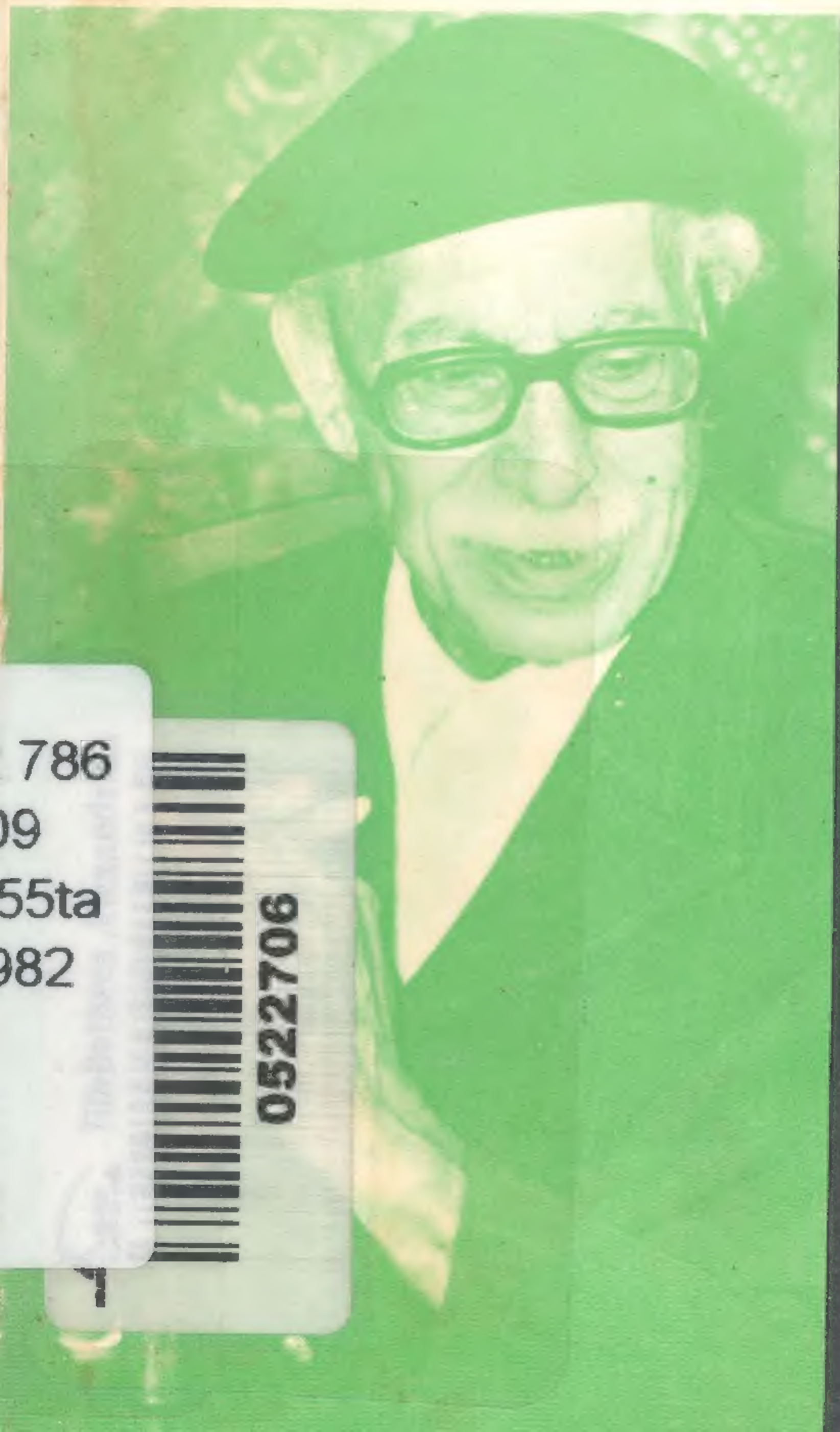
رقم الإيداع	١٩٨٢/٣٢٨٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٠٩١-٣

١/٨٢/١٠٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

1008080/01

ip



786
09
55ta
982



05222706

